مختصر
شرح العقيدة الطحاوية

د. مجيد الخليفة

مختصر

شرح العقيدة الطحاوية

منشورات الإلكترونية

٢٠٢٥-١٤٤٧

مختصر
شرح العقيدة الطحاوية

د. مجيد الخليفة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أحمده سبحانه وأشكره علىٰ ما أنعم به من نعمة الإسلام والإيمان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً أرجو بها النجاة يوم الدين، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، المبعوث رحمةً للعالمين، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيراً.

أما بعد:

فإن علم العقيدة هو أشرف العلوم وأجلُّها قدراً، إذ يتعلق بمعرفة الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهو الأساس الذي تُبنىٰ عليه سائر الأعمال، فلا يقبل الله عملاً إلا إذا قام علىٰ عقيدة صحيحة وإيمان راسخ. ولذلك اعتنىٰ علماء الإسلام بهذا العلم عناية عظيمة، وأفردوا فيه المصنفات والمؤلفات التي حفظ الله بها عقيدة الأمة وصان بها جناب التوحيد من التحريف والبدع والأهواء.

ومن أشهر ما أُلِّف في هذا الباب وأعظم ما تلقته الأمة بالقبول كتاب **(العقيدة الطحاوية)** للإمام الحافظ الفقيه أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي المصري رحمه الله (ت ٣٢١هـ)، ذلك الإمام الذي جمع في رسالته أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة بأسلوب موجز محكم، بعيد عن التكلف

والتعقيد، معتمداً علىٰ نصوص الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان.

وقد حظيت هذه الرسالة المباركة بعناية العلماء عبر القرون، فشرحها الأئمة وعلقوا عليها ودرسوها في حلق العلم والمدارس الشرعية، لما امتازت به من وضوح العبارة، وسلامة المنهج، وحسن الترتيب، حتىٰ أصبحت من أهم المتون العقدية التي يتلقاها طلاب العلم في مختلف الأقطار الإسلامية.

ولما كان كثير من القراء وطلاب العلم يحتاجون إلىٰ شرح مختصر يوضح معاني هذا المتن الجليل ويقرب مقاصده دون إطالة مملة أو اختصار مخل، جاءت فكرة هذا الكتاب الموسوم بـ **(شرح مختصر العقيدة الطحاوية)**، ليكون معيناً علىٰ فهم ألفاظ المتن، وإدراك مقاصده، والوقوف علىٰ أصول مسائل الاعتقاد التي اشتمل عليها.

وقد حرصت في هذا الشرح علىٰ جملة من الأمور، من أهمها:

- بيان المعاني الإجمالية لعبارات الإمام الطحاوي بأسلوب واضح وميسر.
- الاعتماد علىٰ نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح في تقرير مسائل الاعتقاد.
- تجنب الخوض في الجدل الكلامي والمسائل الفلسفية التي لا يحتاج إليها عامة طلاب العلم.

• الإشارة إلىٰ أهم الفوائد والمسائل العقدية المستفادة من كلام المصنف.
• المحافظة علىٰ روح الاختصار مع تحقيق المقصود من الشرح والبيان.

وليس المقصود من هذا العمل استقصاء جميع مباحث العقيدة أو جمع أقوال المتكلمين في كل مسألة، وإنما المقصود تقريب هذا المتن المبارك للقراء، وتيسير فهمه، وربط القارئ بمنهج أهل السنة والجماعة الذي قام علىٰ اتباع الوحيين وتعظيم النصوص الشرعية وفهمها علىٰ ما كان عليه سلف الأمة.

وإن من أعظم ما تحتاج إليه الأمة في هذا العصر ترسيخ العقيدة الصحيحة في النفوس، وربط الأجيال بمصادر الإسلام الأصيلة، حتىٰ يكون الإيمان قائماً علىٰ العلم والبصيرة، بعيداً عن الشبهات والانحرافات الفكرية التي كثرت في الأزمنة المتأخرة.

ولابد من الإشارة أن إعداد هذا المختصر تم خلال تدريسي لمادة العقيدة الإسلامية لطلبة كلية التربية في (جامعة حضرموت) .

أسأل الله تعالىٰ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ودارسه، وأن يجعله من العلم النافع الذي يبقىٰ أجره بعد الموت، وأن يرزقنا جميعاً الثبات علىٰ عقيدة أهل السنة والجماعة حتىٰ نلقاه وهو راضٍ عنا.

وصل الله وسلم وبارك علىٰ نبينا محمد، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

المهرة / مدينة الغيضة

٩ شوال ١٤٢٦

١١ تشرين الثاني ٢٠٠٥

مقدمة الشرح

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد ، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين

أما بعد

علم العقيدة :

إن علم أصول الدين هو من أشرف العلوم ، إذ شرف العلم بشرف المعلوم، وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة ؛ لأنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ولا طمأنينة إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها باسمائه وصفاته وأفعاله ، ويكون مع ذلك كله أحب إليهما مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه .

ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه علىٰ التفصيل ، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين ، وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين ، ولمن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه ، إذ علىٰ هذه المعرفة تبنىٰ مطالب الرسالة كلها من أولها إلىٰ آخرها .

ولقد بدأ المســـلمون يقررون العقيدة بعد ذهاب الســـلف الأول من هذه الأمة التي شـهد لها النبي صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسـلم بالخيرية ، إذ أن اختلاط المســـلمين بمن جاورهم من الأمم الأخرىٰ قد أدىٰ إلىٰ ظهور بعض العلوم الغريبة عن شـــريعة الله تعالىٰ ، والتي تعتمد الأدوات العقلية والفلســـفية في خياطة أبعادها وشـراكها المتشعبة ، وكانت هذه العلوم قد انتقلت علىٰ يد من اســـلم من الموالي والأمم المجاورة خاصـــة من الفرس والروم ، الذين كانوا يعتقدون عقائد تتناقض في مضمونها ومحتواها مع عقيدة التوحيد التي جاء بها الإســـلام ، وكان المتكلمون الأوائل من المســـلمين قد تأثروا بهذه العقائد بســـبب كثرة محاوراتهم ومناظراتهم مع الفرس والروم ، لكن معظم هؤلاء اسـتخدموا هذه العلوم الفلسـفية في وصـف الذات الإلهية ، مما جعل العلماء ينكرون عليهم ذلك ، ويذمون من يبحث في صــفات الله تعالىٰ واســمائه وأفعاله، كما يروىٰ عن الإمام مالك أنه دخل عليه رجل فسـأله عن الاسـتواء فقال له : « الاسـتواء معلوم والكيف مجهول والسـؤال عنه بدعة » ، ثم أمر به فخرج .

ولا يمكن أن نحدد تاريخ محدد لظهور مثل هذه الأفكار عند المسلمين ، فبعض العلماء يرجع ذلك إلىٰ عهد الخليفة الراشـــدي علي رضـــي الله تعالىٰ عنه ، عندما تأول الخوارج بعض الآيات وحدثت في زمنه فتنة عظمية حتىٰ قاتلهم رضي الله عنه في موقعة النهروان ، لكن أثرهم بقي إلىٰ يوم الناس هذا .

وعلىٰ أي حال كان قد ظهر نتيجة لذلك عدد من العلماء من أهل السنة والجماعة فوضعوا أسس العقيدة في كتب مبسوطة ولعل من أشهرها الإمام أبي جعفر أحمد بن سلامة الطحاوي (ت ٣٢١هـ) ، فقد احتاج المؤمنون إلىٰ إيضاح الأدلة الشرعية ودفع الشبهة الواردة عليها وكثر الكلام والشغب ، وسبب ذلك إصغائهم إلىٰ شبه المبطلين وخوضهم في الكلام المذموم الذي عابه السلف ، ونهوا عن النظر فيه والاشتغال به والإصغاء إليه امتثالاً لأمر ربهم حيث قال : ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام : ٦٨] ، فإن معنىٰ الآية يشملهم ، فإن كل من الانحراف والتحريف علىٰ مراتب ، فقد يكون كفراً وقد يكون فسقاً وقد يكون معصية وقد يكون خطئاً .

فالواجب اتباع المرسلين واتباع ما أنزله الله عليهم ، وقد ختمهم الله بمحمد ﷺ فجعله آخر الأنبياء وجعل كتابه مهيمناً علىٰ الكتب ، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ، فكل من طلب أن يحكم في شيء من أمر الدين غير ما جاء به الرسول ويظن أن ذلك حسن ، وأن ذلك جمع بين ما جاء به الرسول وبين من يخالفه فله نصيب من ذلك بل ما جاء به الرسول كاف كامل يدخل فيه كل حق وإنما وقع التقصير من كثير من المنتسبين إليه ، فلم يعلم ما جاء به الرسول في كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية ولا في كثير من الأحوال العبادية ولا في كثير من الإمارة السياسية أو نسبوا إلىٰ شريعة الرسول بظنهم

وتقليدهم ما ليس منها وأخرجوا عنها كثيرا مما هو منها فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم وبسبب عدوان أولئك وجهلهم ونفاقهم كثر النفاق ودرس كثير من علم الرسالة .

والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعرض ونحو ذلك لمجرد كونه اصطلاحا جديدا علىٰ معان صحيحة كالاصطلاح علىٰ ألفاظ العلوم الصحيحة ولا كرهوا أيضا الدلالة علىٰ الحق والمحاجة لأهل الباطل بل كرهوه لاشتماله علىٰ أمور كاذبة مخالفة للحق ومن ذلك مخالفتها الكتاب والسنة ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين فضلا عن علمائهم ولاشتمال مقدماتهم علىٰ الحق والباطل كثر المراء والجدال وانتشر القيل والقال وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله فمن رام علم ما حظر عنه علمه .

الشرح

التوحيد ومعانيه :

قال الشيخ : نقول في الله معتقدين بتوفيق الله أن الله واحد لا شريك له :

اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك إلىٰ الله عز وجل ، قال تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف:٥٩] ، وقال هود عليه السلام : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ [الأنبياء :٢٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ [النحل : ٣٦] ، قال الطبري في تفسير الآية الأخيرة : « ولقد بعثنا أيها الناس في كل أمة سلفت قبلكم رسولا ، أن اعبدوا الله وحده لا شريك له وأفردوا له الطاعة وأخلصوا له العبادة واجتنبوا الطاغوت ، يقول وابعدوا من الشيطان واحذروا أن يغويكم ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا»[1].

---

(١) تفسير الطبري : ١٤/ ١٠٣ .

أما في السنة فقد وردت أحاديث كثيرة تبين عقيدة التوحيد ، ودعوة الرسل إليها ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علىٰ الله »[1] ، وكذلك ما ورد عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من : « قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسىٰ عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلىٰ مريم وروح منه ، وأن الجنة حق وأن النار حق أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء »[2] ، قال النووي في شرح هذا الحديث : «هذا حديث عظيم الموقع وهو من أجمع الأحاديث المشتملة علىٰ العقائد ، فإنه صلىٰ الله عليه وسلم جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر علىٰ اختلاف عقائدهم وتباعدهم ، فاختصر صلىٰ الله عليه وسلم في هذه الأحرف

---

(١) البخاري ، الصحيح ، كتاب الإيمان ، باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة : رقم ٢٥ ؛ مسلم ، كتاب الإيمان ، باب أمرت أن أقاتل الناس ، رقم ٢١ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب من مات علىٰ التوحيد : رقم ٢٧.

علىٰ ما يباين به جميعهم وسمىٰ عيسىٰ عليه السلام كلمة ؛ لأنه كان بكلمة (كن) فحسب من غير أبٍ بخلاف غيره من بني آدم »[1].

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب يجب علىٰ المكلف شهادة أن لا اله إلا الله ، لا النظر ولا القصد إلىٰ النظر ولا الشك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم ، بل أئمة السلف كلهم متفقون علىٰ أن أول ما يؤمر ب العبد الشهادتان ، ومتفقون علىٰ أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه ، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أم ميز عند من يرىٰ ذلك .

إن التوحيد يتضمن ثلاث أنواع :

١ . **توحيد الأسماء والصفات** : وهو بيان الاعتقاد الصحيح في الصفات الإلهية كما جاء ذلك في الكتاب والسنة الصحيحة ، والرد علىٰ الفرق الأخرىٰ التي تكلمت حول هذا المعتقد ، وعمدة الكلام هنا موجه إلىٰ النفات من فرق الجهمية ، إذ أشتهر عن الجهم بن صفوان[2] نفيه للصفات الإلهية ، والمعطلة من المعتزلة الذين سلوا مسلكًا مغايراً للجهمية ولكن عن طريق تأويل

---

(١) شرح صحيح مسلم : ١/ ٢٧٧ .

(٢) لذلك يسمي العلماء كل من نفىٰ الصفات الإلهية (جهمي) نسبة إلىٰ الجهم بن صفوان الذي نفىٰ صفة الخلة عن إبراهيم عليه السلام والتكليم عن موسىٰ عليه السلام ، فقتل لهذا السبب سنة ١٢٨هـ .

الصفات عن معناها الحقيقي أو تعطيلها بتفسيرات لغوية لا تفي بمقتضاها ، وأشتهر عن المعتزلة كلامهم في الصفات أيضاً ، وسلكوا فيها مسلكاً يغاير عقيدة السلف في ذلك (١) .

٢. **توحيد الربوبية** : هو الإقرار بأن الله وحده خالق كل شيء ، وأنه ليس للعالم خالقان متكافئان في الصفات والأفعال ، وفي بيان معتقد أهل السنة والجماعة في هذا التوحيد ردٌ على الملاحدة والدهريين والفلاسفة ، كما فيه ردٌ على الملل الأخرى كاليهود والنصارى والصابئة والمجوس والقائلين بالتناسخ من أهل الهند والصين .

والآيات في هذا الباب كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [الأنعام : ١٤] وقوله تعالى : ﴿ **قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ** ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

أما في السنة فمنه ما رواه مسلم عن عبد الرحمن بن عوف قال : سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يفتتح صلاته

---

(١) ابن حزم ، الفصل : ٢/ ٢٦٥ .

إذا قام من الليل ؟ قالت : كان إذا قام من الليل افتتح صــلاته : « اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإســرافيل ، فاطر الســماوات والأرض عالم الغيب والشــهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم »[1] .

٣. توحيد الإلهية : وهو اســتحقاقه ســبحانه وتعالىٰ أن يعبد وحده لا شريك له ، علىٰ ما سيأتي بيانه إن شاء الله .

والثالث توحيد الإلهية وهو اســتحقاقه ســبحانه وتعالىٰ أن يعبد وحده لا شريك له .

وسنأتي علىٰ شرح كل واحد من هذه الأنواع بإذن الله تعالىٰ .

توحيد الربوبية :

هو الإقرار بأنه تعالىٰ خالق كل شــيء ، وأنه ليس للعالم خالقان متكافئان في الصـفات والأفعال ، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصـوفية ، وهذا التوحيد لم يذهب إلىٰ نقيضـه طائفة معروفة من بنىٰ آدم بل القلوب مفطورة علىٰ الإقرار به أعظم من كونها مفطورة علىٰ الإقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرســل فيما حكىٰ الله

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب الدعاء في صلاة الليل : رقم ٧٧٠ .

عنهم : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون ، وقد كان مستيقنا به في الباطن كما قال له موسىٰ : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل : ١٤] ، ولهذا لما قال : ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء : ٢٣] علىٰ وجه الإنكار له تجاهل العارف قال له موسىٰ : ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء : ٢٤ - ٢٨].

والمقصود هنا أنه ليس في الطوائف من يثبت للعالم خالقين متماثلين مع أن كثيرا من أهل الكلام والنظر والفلسفة تعبوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل وزعم أنه يتلقىٰ من السمع .

ولم يكن المشركون يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة في خلق العلم ، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم ، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من أنبياء والصالحين ويتخذونهم شفعاء ويتوسلون بهم إلىٰ الله ، وهذا كان اصل شرك العرب ،

وشـــرك قوم إبراهيم عليه السلام كـان فيما يقـال من هـذا البـاب ، وكـذلك الشــرك بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم .

وهؤلاء كانوا مقرين بالخالق وأنه ليس للعالم خالقان ، ولكن اتخذوا هؤلاء شـفعاء كما أخبر عنهم تعالىٰ بقوله : ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر : ٣] ، وكذلك كان حال الأمم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل ، فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية الذي يتضــمن توحيد الربوبية قال تعالىٰ : ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠﴾ [الرُّوم : ٣٠].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « **كل مولود يولد علىٰ الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصــرانه أو يمجسـانه** » ، ولا يقال أن معناه يولد سـاذجا لا يعرف توحيدا ولا شـركا ، كما قال بعضــهم لما تلونا ، وإما يدل علىٰ ذلك حيث قال يهودانه أو ينصــرانه أو يمجسانه ولم يقل يسلمانه ، وفيٰ رواية : «**علىٰ هذه الملة** » .

وإذا كان توحيد الربوبية الذي يجعله أهل الكلام والنظار – ومن وافقهم من الصـوفية – هو الغاية في التوحيد داخلا في التوحيد الذي جاءت به الرسـل ونزلـت به الكتب والقرآن ، وقد ضــرب الله للناس فيه من كل مثل وهيٰ المقاييس العقلية المفيدة للمطالب الدينية ، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل ، ولما كان الشـرك في الربوبية معلوم الامتناع عند الناس كلهم باعتبار

إثبات خالقين متماثلين في الصفات والأفعال ، وإنما ذهب بعض المشركين إلىٰ أن ثم خالقا خلق بعض العالم كما يقوله الثنوية في الظلمة ، وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان ، وكما يقوله الفلاسفة والدهرية في حركة الأفلاك أو حركات النفوس أو الأجسام الطبيعية فان هؤلاء يثبتون أمورا محدثة بدون إحداث الله إياها فهم مشركون في بعض الربوبية ، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظن في آلهته شيئا من نفع أو ضر بدون أن يخلق الله ذلك .

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس فمن لا يقدر علىٰ أن يخلق يكون عاجزا والعاجز لا يصلح أن يكون إلها قال تعالىٰ : ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأَعۡرَاف : ١٩١] ، وقال تعالىٰ : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا إلىٰ ذي العرش سبيلا ﴾ ، والمنقول عن السلف لاتخذوا سبيلا بالتقرب إليه ، وذلك أنه قال لو كان معه آلهة كما يقولون وهم لم يقولوا إن العالم له خالقان بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء ، وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ ، بخلاف الآية الأولىٰ .

دعوة الرسل للتوحيد :

إن التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول هو الثبات حقيقة ذات الرب تعالىٰ وصفاته وأفعاله وأسمائه ليس كمثله شيء في ذلك كله ، كما اخبر به عن نفسه ، وكما اخبر رسوله ﷺ ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح .

والثاني وهو توحيد الطلب والقصد مثل ما تضمنته سورة قل يا أيها الكافرون وقل يا أهل الكتاب وغيرها من السور والآيات .

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد بل كل سورة في القرآن ، فالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري ، وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه ، فهو التوحيد الإرادي الطلبي ، واما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته ، واما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة فهو جزاء توحيده ، واما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يحل بهم في العقبىٰ من العذاب ، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد .

وقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله ، قال تعالىٰ : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران : ١٨ - ١٩] ، فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد

والرد علىٰ جميع طوائف الضلال فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به .

ووجه استلزم شهادته سبحانه لذلك انه إذا شهد انه لا اله إلا هو ، فقد أخبر وبين وأعلم وحكم وقضىٰ أن ما سواه ليس بإله أو إلهية ما سواه باطلة ، فلا يستحق العبادة سواه كما لا تصلح الإلهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلها والنهىٰ عن اتخاذ غيره معه إلها ، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات ، كما إذا رأيت رجلا يستفتىٰ رجلا أو يستشهده أو يستطبه وهو ليس أهلا لذلك ويدع من هو أهل له فتقول هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب المفتي فلان ، والشاهد فلان والطبيب فلان فان هذا أمر منه ونهي .

وأيضا فالآية دلت علىٰ أنه وحده المستحق للعبادة ، فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحق الرب تعالىٰ عليهم ، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم .

وإذا عرف أن توحيد الإلهية هو التوحيد الذي أرسلت به الرسل ، وأنزلت به الكتب وأكمل الناس توحيدا الأنبياء صلوات الله عليهم والمرسلون منهم أكمل في ذلك ، ودعوا إليه وجاهدوا الأمم عليه ولهذا أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه ، كما قال تعالىٰ بعد ذكر مناظرة إبراهيم قومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته : ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ

﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام : ٩٠] ، فلا أكمل من توحيد من أمر رسـول الله أن يقتدي بهم ، وكان يعلم ﷺ أصحابه إذا اصبحوا أن يقولوا : « أصبحنا علىٰ فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد وملة ابينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين »[1] ، فملة إبراهيم التوحيد ودين محمد ما جاء به من عند الله قولا وعملا واعتقادا ، وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا اله إلا الله ، وفطرة الإسلام هي ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له ، والاستسلام له عبودية وذلا وانقيادا وإنابة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ومن الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ، ووصفه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل .

قلت : ولا بد من بيان هذه معني هذه المصطلحات للدلالة علىٰ المقصود: فالتحريف في اللغة هو التغيير وإمالة الشيء عن وجهه ، يقال انحرف عن كذا إذا مال ، وهو نوعان : النوع الأول تحريف اللفظ وهو العدول به عن جهته إلىٰ غيرها إما بزيادة أو نقص أو تغيير حركة ، كقول أهل الضلالة في قوله تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه : ٥] أي (استولىٰ) فزاودوا حرفًا ، وكقولهم في قوله تعالىٰ : ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر : ٢٢]

---

(١) أحمد (١٥٣٦٠) .

أي امر ربك فزادوا كلمة ، وكقولهم في قوله تعالىٰ : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النِّسَاء : ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة فغيروا الحركة الإعرابية من الرفع والنصب .

النوع الثاني من التحريف هو تحريف المعنىٰ : وهو العدول به عن وجهته وحقيقته وإعطاء اللفظ معنىٰ لفظ آخر كقول المبتدعة : إن معنىٰ الرحمة الإنعام ، وإن معنىٰ الغضب : إرادة الانتقام .

والتعطيل : لغة الإخلاء – يقال عطله أي أخلاه ، والمراد به هنا نفي الصفات عن الله سبحانه وتعالىٰ ، والفرق بين التحريف والتعطيل : أن التحريف هو نفي المعنىٰ الصحيح الذي دلت عليه النصوص واستبداله بمعنىٰ آخر غير صحيح ، والتعطيل هو نفي المعنىٰ الصحيح من غير استبدال له بمعنىٰ آخر كفعل المفوضة، فكل محرف معطل لا العكس .

والتكييف : هو تعيين كيفية ، فكييف صفات الله تعالىٰ هو تعيين كيفيتها والهيئة التي تكون عليها ، وهذا لا يمكن لبشر ؛ لأنه مما استأثر الله تعالىٰ بعلمه ، فلا سبيل إلىٰ الموصل إليه ؛ لأن الصفة تابعة للذات ، فكما أن ذات الله تعالىٰ لا يمكن للبشر معرفة كيفيتها ، فكذلك صفته سبحانه لا تعلم كيفيتها .

والتمثيل هو التشبيه ، بأن يقال إن صفات الله مثل صفات المخلوقين ، كأن يقال يد كأيدينا وسمعه كسمعنا تعالىٰ الله عن ذلك ، فالمثل هو الذي يثبتها علىٰ وجه لا يليق بالله وإنما يليق بالمخلوق.

ليس كمثله شيء :

اتفق أهل السنة علىٰ أن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنىٰ الصحيح ، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالىٰ لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشُّورَى : ١١] ، رد علىٰ الممثلة المشبهة : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشُّورَى : ١١] ، رد علىٰ النفات ، فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ، ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارىٰ في كفرهم ، ويراد به أنه لا يثبت لله شيء من الصفات ، فلا يقال له قدرة ولا علم ولا حياة لان العبد موصوف بهذه الصفات ولازم هذا القول أنه لا يقال له حي عليم قدير ؛ لان العبد يسمىٰ بهذه الأسماء ، وكذلك كلامه وسمعه وبصره وأرادته وغير ذلك . وهم يوافقون أهل السنة علىٰ انه موجود عليم قدير حي والمخلوق

يقال له موجود حي عليم قدير ولا يقال هذا تشبيه يجب نفيه وهذا مما دل عليه الكتاب والسنة وصريح العقل ولا يخالف فيه عاقل .

فإن الله سمىٰ نفسه بأسماء وسمىٰ بعض عباده بها ، وكذلك سمىٰ صفاته بأسماء وسمىٰ ببعضها صفات خلقه ، وليس المسمىٰ كالمسمي فسمىٰ نفسه حيا عليما قديرا رؤوفا رحيما عزيزا حكيما سميعا بصيرا ملكا مؤمنا جبارا متكبرا ، وقد سمىٰ بعض عباده بهذه الأسماء فقال : ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات : ٢٨] ، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة : ١٢٨] ، ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان : ٢] ، ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف : ٥١] ، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر : ٣٥] ، ومعلوم أنه لا يماثل الحي الحي ، ولا العليم العليم ولا العزيز العزيز ، وكذلك سائر الأسماء ، وعن جابر رضي الله عنه قال كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول : « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل اللهم إني استخيرك بعلمك واستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فانك تقدر ولا اقدر وتعلم ولا اعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري بارك لي فيه وان كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري واجله فاصرفه

عنىٰ واصــرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضــني به قال ويســمىٰ حاجته» ، رواه البخاري[1] .

ونظائر هذا كثيرة وهذا لازم لجميع العقلاء فان من نفىٰ صـفة من صـفاته التي وصـف الله بها نفســه كالرضــىٰ والغضــب والحب والبغض ونحو ذلك وزعم أن ذلك يستلزم التشبيه والتجسيم قيل له فأنت تثبت له الإرادة والكلام والسمع والبصر مع أن ما تثبته له ليس مثل صفات المخلوقين فقل فيما نفيته وأثبته الله ورسوله مثل قولك فيما أثبته إذ لا فرق بينهما .

فعلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه فمن نفىٰ ما اتفقا فيه كان معطلا قائلا بالباطل ومن جعلهما متماثلين كان مشــبها قائلا بالباطل والله اعلم ، وذلك لأنهما وان اتفقا في مســمىٰ ما اتفقا فيه فالله تعالىٰ مختص بوجوده وعلمه وقدرته وســائر صـفاته ، والعبد لا يشــركه في شــيء من ذلك والعبد أيضــا مختص بوجوده وعلمه وقدرته ، والله تعالىٰ منزه عن مشــاركة العبد في خصائصه وإذا اتفقا في مسمىٰ الوجود والعلم والقدرة فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان والموجود في الأعيان مختص لا اشــتراك فيه ، وهذا موضــع اضــطراب فيه كثير من النظار حيث توهموا أن

(١) البخاري (١١٦٢) .

الاتفاق في مسمىٰ هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد .

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنىٰ وزادوا فيه علىٰ الحق فضــلوا وأن المعطلة أخذوا نفي المماثلة بوجه من الوجوه وزادوا فيه علىٰ الحق حتىٰ ضــلوا وأن كتاب الله دل علىٰ الحق المحض الذي تعقله العقول السليمة الصحيحة وهو الحق المعتدل الذي لا انحراف فيه فالنفات أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ، ولكن اساؤوا في نفي المعاني الثابتة لله تعالىٰ في نفس الأمر والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ولكن اساؤوا بزيادة التشبيه .

فالرسول صلوات الله وسلامه عليه لما بين لنا أمورا لم تكن معروفة قبل ذلك وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها أتىٰ بألفاظ تناســب معانيها تلك المعاني وجعلها أسماء لها فيكون بينها قدر مشترك كالصلاة والزكاة والصوم والإيمان والكفر ، وكذلك لما أخبرنا بأمور تتعلق بالإيمان بالله وباليوم الآخر وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتىٰ يكون لهم ألفاظ تدل عليها بعينها أخذ من اللغة الألفاظ المناســبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشــترك بين تلك المعاني الغيبية والمعاني الشهودية التي كانوا يعرفونها وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يعلم به حقيقة المراد كتعليم الصبي .

لا شيء يعجزه :

لكمال قدرته قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠﴾ [البَقَرَةِ : ٢٠] ، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ٤٥﴾ [الكَهْف : ٤٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] اي لا يؤده أي لا يكرثه ولا يثقله ولا يعجزه ، فهذا النفي لثبوت كمال ضده ، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله تعالىٰ في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده ، كقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾ [الكَهْف : ٤٩] ﴾ لكمال عدله ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ٣٨﴾ [ق : ٣٨] لكمال قدرته ، وقوله : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] ، لكمال حياته وقيوميته ، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه ، لهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلا والنفي مجملا .

والمراد أن الله تعالىٰ قد جمع فيما وصف وسمىٰ نفسه بين النفي والإثبات ، فقد تضمنت صفات الكمال ونفي النقص عن الله تعالىٰ ، ففي قوله تعالىٰ : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] نفي الإلهية عما سواه وإثباتها له ، وفي قوله : ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] إثبات الحياة والقيومية له ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] نفي السنة (وهي النوم الخفيف) والنوم عنه ، وفي قوله : ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البَقَرَةِ :

٢٥٥] إثبات ملكيته الكاملة للعالمين العلوي والسفلي ، وفي قوله : ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] نفي الشفاعة عنده بغير إذنه لكمال عظمته وغناه عن خلقه ، وفي قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] إثبات كمال علمه بكل شيء ماضياً أو مستقبلاً ، وفي قوله : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] بيان حاجة الخلق إليه وإثبات غناه عنهم ، وفي قوله : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] إثبات كرسيه وإثبات كما عظمته وجلالته وصغر المخلوقات بالنسبة إليه ، وفي قوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] نفي العجز والتعب عنه سبحانه ، وفي قوله : ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البَقَرَةِ : ٢٥٥] إثبات العلو والعظمة له سبحانه .

ولا إله غيره :

هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم كما تقدم ذكره ، واثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر ، فان الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال ولهذا والله أعلم لما قال تعالىٰ : ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [البَقَرَةِ : ١٦٣] ، قال بعده : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البَقَرَةِ : ١٦٣] فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني فيقول : هب أن إلهنا واحد فلغيرنا اله غيره ، فقال تعالىٰ : ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البَقَرَةِ : ١٦٣].

هو الأول والآخر :

قــــال تعالـــــىٰ : ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد : ٣] ، وقد فسر النبي ﷺ هذه الآية الكريمة بقوله : « اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء »(١)، قال ابن القيم (رحمه الله) : « فهذه الأســماء الأربعة متقابلة : اســمان لأزليته وأبديته ســبحانه (وهما الأول والآخر) ، واســمان لعلوه وقربه (وهما الظاهر والباطن) ... » ، والشــاهد من كلامه تعالىٰ وكلام النبي ﷺ : إثبات هذه الأســماء له تعالىٰ المقتضية لإحاطته بكل شيء زمانـًا ومكانـًا وإطلاعـًا وتدبيراً ، تعالىٰ وتقدس علواً كبيراً .

لا يفنىٰ ولا يبيد :

قرار بدوام بقائه سبحانه وتعالىٰ قال عز من قائل : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن : ٢٦ - ٢٧] ، والفناء والبيد متقاربان في المعنىٰ والجمع بينهما في الذكر للتأكيد .

---

(١) البخاري (١١٦٢) .

ولا يكون إلا ما يريد :

هذا رد لقول القدرية والجبرية فانهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم والكافر أراد الكفر وقولهم فاسد ، مردود لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح وهي مسالة القدر المشهورة ، وقد تفرقوا إلىٰ طائفتين رئيسيتين :

القدرية : ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلىٰ قدرتهم ، بعبارة أخرىٰ أنهم يقولون لا قدر (وهو نفي الإرادة الكونية ، وإثبات الإرادة الشرعية فقط) ، وهم الذين قال النبي ﷺ في حقهم : « **القدرية مجوس هذه الأمة** » قال الشهرستاني : لمشاركتهم المجوس فيما اشتهروا به من إثبات خالقين لا في قولهم بأن الله خلق شيئا ثم أنكره ، والنافون له هم المشاركون لهم في تلك ، الصفة المشهورة حيث يجعلون العبد خالقا لأفعاله وينسبون القبائح والشرور إليه دون الله سبحانه .

الجبرية : الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلىٰ الله تعالىٰ ، (فهو يثبتون الإرادة الكونية فقط ، وينفون الإرادة الشرعية) .

أما أهل السنة فيقولون إن الله وان كان يريد المعاصي قدرا فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهىٰ عنها ، وهذا قول السلف قاطبة فيقولون : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا اتفق الفقهاء علىٰ أن الحالف لو قال والله لافعلن كذا إن شاء الله لم يحنث اذا لم

يفعله ، وان كان واجبا أو مستحبا ، ولو قال إن أحب الله حنث اذا كان واجبا أو مستحبا .

والمحققون من أهل السنة يقولون الإرادة في كتاب الله نوعان :

الإرادة القدرية الكونية الخلقية : هي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وقوله تعالىٰ عن نوح عليه السلام : ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود : ٣٤] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة : ٢٥٣].

الإرادة الدينية الأمرية الشرعية : وهي المتضمنة للمحبة والرضىٰ ، كقوله تعالىٰ : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء : ٢٦] وقوله تعالىٰ : ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة : ٦].

أما الفرق بينهما فيمكن بيانه بالآتي :

١. الإرادة الكونية قد يحبها الله ويرضاها وقد لا يحبها ولا يرضاها ، والإرادة الشرعية لا بد أنه يحبها ويرضاها ، فالله أراد المعصية كونـاً ولا يرضاها شرعـاً .

٢. والإرادة الكونية مقصودة لغيرها – كخلق إبليس وسائر الشرور لتحصل بسبب ذلك المجاهدة والتوبة والاستغفار وغير ذلك من المحاب ، والإرادة الشرعية مقصودة لذاتها – فالله أراد الطاعة كونـاً وشرعـاً وأحبها ورضيها .

٣. الإرادة الكونية لا بد من وقوعها ، والإرادة الشرعية لا يلزم من وقوعها ، فقد تقع أو لا تقع .

لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام :

يجب أن نعرفه سبحانه بصفاته وهو أنه : ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص : ١ - ٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣﴾ [الحشر : ٢٣].

لا يشبه الأنام :

هذا رد لقول المشبهة الذين يشبهون الخالق بالمخلوق سبحانه وتعالىٰ ، قال عز وجل : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورَى : ١١] ، وليس المراد نفي الصفات كما يقول أهل البدع ، فمن كلام أبي حنيفة رحمه الله في (الفقه الأكبر) : « لا يشبه شيئا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه ، ثم قال بعد ذلك وصفاته كلها خلاف صفات المخلوقين يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرىٰ لا كرؤيتنا » ، وقال نعيم بن حماد : « من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه » .

قال خلق كثير من أئمة السلف علامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة ، فانه ما من أحد من نفاة شيء من الأسماء والصفات إلا يسمي المثبت لها مشبها ، فمن أنكر أسماء الله بالكلية من غالية الزنادقة القرامطة والفلاسفة ، وقال : (إن الله لا يقال له عالم ولا قادر) ، يزعم أن من سماه بذلك فهو مشبه ؛ لان الاشتراك في الاسم يوجب الاشتباه في معناه ، ومن أثبت الاسم وقال هو مجاز كغالية الجهمية : يزعم أن من قال : إن الله عالم حقيقة قادر حقيقة فهو مشبه ، ومن أنكر الصفات وقال : إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة ، قال لمن أثبت الصفات انه مشبه وانه مجسم ، ولهذا كتب نفات الصفات من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم كلها مشحونة

بتسمية مثبتة الصفات مشبهة ومجسمة ، حتىٰ الذين يفسرون القرآن منهم كعبد الجبار والزمخشري وغيرهما يسمون كل من أثبت شيئا من الصفات وقال بالرؤية مشبها ، وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف ، ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات ولا يصفون به كل من اثبت الصفات ، بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله ، كما تقدم من كلام أبي حنيفة رحمه الله ، أنه تعالىٰ يعلم لا كعلمنا ويقدر لا كقدرتنا ويرىٰ لا كرؤيتنا وهذا معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى : ١١] » .

حي لا يموت قيوم لا ينام :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ((إن عامة ما وصف الله به نفسه من النفي متضمنا لإثبات مدح كقوله : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] إلىٰ قوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة : ٢٥٥] فنفىٰ السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام ، فهو مبين لكمال أنه الحي القيوم ، وكذلك قوله : ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة : ٢٥٥] أي لا يكرثه ولا يثقله ، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها ، بخلاف المخلوق القادر اذا كان يقدر علىٰ الشيء بنوع كلفة ومشقة فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته .

وفي السنة من حديث عن أبي موسىٰ قال : « قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه »[1].

قال الخطابي عندما سأل عن صفاته تعالىٰ : « إن مذهب السلف إثباتها وأجراؤها علىٰ ظواهرها ، ونفي الكيفية والتشبيه عنها ، وقد نفاها قوم فأبطلوا ما أثبته الله ، وحققها قوم من المثبتين فخرجوا في ذلك إلىٰ ضرب من التشبيه والتكييف ، وإنما القصد في سلوك الطريقة المستقيمة بين الأمرين ودين الله تعالىٰ بين الغالي فيه والجافي والمقصر عنه » .

خالق بلا حاجة رازق بلا مؤنة :

قال تعالىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات : ٥٦ - ٥٨] وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر : ١٥] ، وفي السنة من حديث أبي ذر رضي الله عنه فيما

(١) أحمد (١٩٥٦١) .

يرويه ﷺ عن رب العزة : « يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شـيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر »(١) ، وقوله بلا مؤنة : بلا ثقل ولا كلفة .

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) .

باب تفصيل صفات الذات من صفات الأفعال

قال الطحاوي رحمه الله : **ما زال بصفاته قديما قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئا لم يكن قبلهم من صفته وكما كان بصفاته أزليا كذلك لا يزال عليها أبدياً.**

الشرح : أي أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يزل متصفا بصفات الكمال صفات الذات وصفات الفعل ، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفا بها ؛ لان صفاته سبحانه صفات كمال وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفا بضده ، ولا يرد علىٰ هذه صفات الفعل والصفات الاختيارية ونحوها كالخلق والتصوير والامانة والاحياء والقبض والبسط والطي والاستواء والاتيان والمجيء والنزول والغضب والرضىٰ ونحو ذلك ، مما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، وإن كنا لا ندرك كنهة وحقيقته التي هي تأويله ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ولكن أصل معناه معلوم لنا .

أما الضابط في التفريق بين الصفات الذاتية والصفات الفعلية (وتسمىٰ في بعض الأحيان الاختيارية) ، فإن صفات الفعل هي التي تتعلق بالمشيئة والقدرة مثل : الاستواء ، النزول ، المجيء ، العجب ، الضحك ، الرضىٰ ، الحب ، الكره السخط ، الغضب ، وهذا القسم قديم النوع حادث الآحاد ،

ويقدر فيها إذا شـاء ، ومثال علىٰ هذا النوع قوله تعالىٰ واصـفـًا حال اليهود : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة : ٦٠] ومن السـنة ما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضـي الله عنه أن رسـول الله صـلىٰ الله عليه وسـلم قال : « يضـحك الله إلىٰ رجلين يقتل ، أحدهما الآخر يدخلان الجنة ، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله علىٰ القاتل فيستشهد »[1] ، وكذلك ما أخرجه مسـلم في صـحيحه عن أبو هريرة قال : « قال رسـول الله صـلىٰ الله عليه وسـلم – يوم أحد – : اشـتد غضـب الله علىٰ قوم فعلوا هذا برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وهو حينئذ يشير إلىٰ رباعيته وقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم اشتد غضب الله علىٰ رجل يقتله رسول الله في سبيل الله عز وجل »[2] .

أما صـفات الذات فهي التي لا تنفك عن الله تعالىٰ كما ذكرنا مثل العين والعلم واليد والملك والعظمة والكبرياء والعلو والغنىٰ والرحمة والحكمة ، وضـابط الصـفات الذاتية أن يقال هي الملازمة للذات ، ويقال هي التي لا ينفك الباري عنها ، وأكثر ما نجدها في آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالىٰ :

---

(١) البخاري (٢٨٢٦) .

(٢) البخاري (٤٠٧٣) .

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشُّورَى : ١١] ، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البَقَرَةِ : ٢١٨] وغيرها من الآيات ، أما من السنة فهي كثير أيضاً منها ما أخرجه البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : «من تعار من الليل ، فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير الحمد لله وسبحان الله ، ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال : اللهم اغفر لي أو دعا استجيب له ، فإن توضأ وصلىٰ قبلت صلاته »[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية – طيب الله ثراه – في الصفات الاختيارية وهيٰ الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته بمشيئته وقدرته مثلا : كلامه وسمعه وبصره وارادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه ومثل خلقه واحسانه وعدله ومثل استوائه ومجيئه واتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة ، فالجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم يقولون لا يقوم بذاته شيء من هذه الصفات ولا غيرها ، و الكلابية[2] ، ومن وافقهم من السالمية[3] ، وغيرهم يقولون تقوم صفات بغير

---

(١) البخاري (١١٥٤) .

(٢) نسبة إلىٰ ابن كلاب من رؤوس المعتزلة .

(٣) نسبة إلىٰ سالم بن حكم ، من فرق الشيعة ، أخذوا هذه المقالة عن المعتزلة .

مشـيئته وقدرته ، فأما ما يكون بمشـيئته وقدرته فلا يكون إلا مخلوقا منفصـلا عنه .

وأهل الكلام المذموم يطلقون نفي حلول الحوادث علىٰ الله تعالىٰ فيسلم السـني للمتكلم ذلك علىٰ ظن أنه نفي عنه سـبحانه ما لا يليق بجلاله ، فإذا سـلم له هذا النفي ألزمه نفي الصـفات الاختيارية وصـفات الفعل ، وهو غير لازم له ، وإنما آتي السـني من تسـليم هذا النفي المجمل وإلا فلو اسـتفسـر واستفصل لم ينقطع معه .

وكذلك مسـالة الصـفة هل هي زائدة علىٰ الذات أم لا لفظها مجمل وكذلك لفظ الغير فيه اجمال فقد يراد به ما ليس هو إياه وقد يراد به ما جاز مفارقته له ، ولهذا كان أئمة السـنة رحمهم الله تعالىٰ لا يطلقون علىٰ صـفات الله وكلامه أنه غيره ولا انه ليس غيره ؛ لان إطلاق الإثبات قد يشـعر أن ذلك مباين له ، وإطلاق النفي قد يشـعر بأنه هو هو اذا كان لفظ الغير فيه اجمال فلا يطلق الا مع البيان والتفصيل ، وهو أن الصفة ليست عين ذات الموصوف التي يفرضـها الذهن مجردة ، بل هي غيرها وليسـت غير الموصـوف بل الموصـوف بصـفاته شـيء واحد غير متعدد ، فإذا قلت أعوذ بالله فقد عذت بالذات المقدسـة الموصـوفة بصـفات الكمال المقدسـة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه ، واذا قلت : « أعوذ بعزة الله » فقد عذت بصفة من صـفات الله تعالىٰ ولم أعذ بغير الله ، وهذا المعنىٰ يفهم من لفظ الذات فان

ذات في أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة أي ذات وجود ذات قدرة ذات عز ذات علم ذات كرم إلىٰ غير ذلك من الصفات ، فذات كذا بمعنىٰ صاحبة كذا تأنيث ذو هذا أصل معنىٰ الكلمة فعلم أن الذات لا يتصور انفصال الصفات عنها بوجه من الوجوه وان كان الذهن قد يفرض ذاتا مجردة عن الصفات كما يفرض المحال ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان يقول : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر »[1] ، وقال ﷺ في حديث آخر : « أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق »[2] ، وهو صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم لا يعوذ بغير الله ، وكذا قال ﷺ : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك »[3] .

والشيخ رحمه الله أشار بقوله : ما زال بصفاته قديما قبل خلقه ... إلىٰ آخر كلامه ، إلىٰ الرد علىٰ المعتزلة والجهمية ومن وافقهم من الشيعة فانهم قالوا انه تعالىٰ صار قادرا علىٰ الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادرا عليه ، لكونه صار الفعل والكلام ممكنا (أي بعد أن خلق الخلق لأن كونه تعالىٰ قبل الخلق لا يوجد من يتكلم معه بزعمهم) بعد أن كان ممتنعا وانه انقلب من

---

(١) مسلم (٢٢٠٢).

(٢) مسلم (٢٧٠٨).

(٣) مسلم (٤٨٦).

الامتناع الذاتي إلىٰ الإمكان الذاتي ، وعلي بن كلاب والاشعري ومن وافقهما فانهم قالوا إن الفعل صار ممكنا له بعد أن كان ممتنعا منه وأما الكلام عندهم فلا يدخل تحت المشيئة والقدرة بل هو شيء واحد لازم لذاته . ولذا قال الطحاوي رحمه الله :

ليس بعد الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم الباري .

خالق قبل الخلق :

إن القول بأن الحوادث لها أول يلزم منه التعطيل قبل ذلك وأن الله سبحانه وتعالىٰ لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا ، ولا يلزم من ذلك قدم العالم (أي أنه موجود مع الله تعالىٰ) ؛ لان كل ما سوىٰ الله تعالىٰ محدث ممكن الوجود موجود بايجاد الله تعالىٰ له ليس له من نفسه ، إلا العدم (وهو ليس بشيء) ، والله تعالىٰ واجب الوجود لذاته غني لذاته والغنىٰ وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالىٰ .

والناس قولان في هذا العالم هل هو مخلوق من مادة أم لا ؟ واختلفوا في أول هذا العالم ما هو ، وقد قال تعالىٰ : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود : ٧] ، وقال تعالىٰ : ﴿لِيَّا فَاطِرِ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: ١٤]، وروي عن ابن عباس في تفسير لفظ (فاطر) أي أوجدها من غير إيجاد، أي أوجد السماوات والأرض من العدم.

وروى البخاري وغيره عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: «قال أهل اليمن لرسول الله ﷺ: جئناك لنتفقه في الدين ولنسألك عن أول هذا الأمر؟ فقال: كان الله ولم يكن شيء قبله» وفي رواية: «ولم يكن شيء معه» وفي رواية: «غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السماوات والأرض»، وفي لفظ: «ثم خلق السماوات والأرض»[1]، فقوله ﷺ: «كتب في الذكر» يعني اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء: ١٠٥] يسمى ما يكتب في الذكر ذكرا كما يسمى ما يكتب في الكتاب كتاباً.

المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، فأخبر أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان

(١) البخاري (٣١٩١).

قبل خلقه الأرض والسماوات بخمسين ألف سنة ، وأن عرش الرب تعالىٰ كان حينئذ علىٰ الماء»[1] .

ومعنىٰ الحديث أن قول أهل اليمن : « جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر» إشارة إلىٰ حاضر مشهود موجود ، والأمر هنا بمعنىٰ المأمور ، أي الذي كونه الله بأمره وقد أجابهم النبي عن بدء هذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات ؛ لأنهم لم يسألوه عنه وقد أخبرهم عن خلق السماوات والأرض حال كون عرشه علىٰ الماء ، ولم يخبرهم عن خلق العرش ، وهو مخلوق قبل خلق السماوات والأرض ، وأيضا فانه قال : « كان الله ولم يكن شيء قبله » ، ولفظ القبل ثبت عن النبي ﷺ في غير هذا الحديث ففي حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أنه كان يقول في دعائه : «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر .. » الحديث[2] .

هذا المعنىٰ ينفي تعطيل الرب عن الفعل حتىٰ خلق السماوات والأرض ، وأيضا فقوله : « كان الله ولا شيء قبله » وقوله تعالىٰ : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى

---

(١) مسلم (٢٦٥٣).

(٢) مسلم (٢٧١٣).

﴿ٱلۡمَآءِ﴾ [هُود: ٧] لا يصح أن يكون المعنىٰ أنه تعالىٰ موجود وحده لا مخلوق معه أصلا ، لأن قوله : ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هُود: ٧] يرد ذلك ، فعرشه مخلوق موجود في ذلك الوقت ، فعلم أن المراد ولم يكن شيء من هذا العالم المشهود .

لذا قال الطحاوي : **له معنىٰ الربوبية ولا مربوب ومعنىٰ الخالق ولا مخلوق .**

يعني أن الله تعالىٰ موصوف بأنه الرب قبل أن يوجد مربوب وموصوف بأنه خالق قبل أن يوجد مخلوق : **وكما أنه محيي الموتىٰ بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم** يعني أنه سبحانه وتعالىٰ موصوف بأنه محيي الموتىٰ قبل إحيائهم فكذلك يوصف بأنه خالق قبل خلقهم إلزامـًا للمعتزلة ، ومن قال بقولهم بأنه تعالىٰ خلق الخلق فسمي خالقـًا وأحياهم فسمي محي ، لأن الحق أنه تعالىٰ لم يزل يفعل ما يشاء .

وهو علىٰ كل شيء قدير :

قال الطحاوي رحمه الله : **ذلك بأنه علىٰ كل شيء قدير وكل شيء إليه فقير وكل أمر عليه يسير لا يحتاج إلىٰ شيء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .**

ذلك إشارة إلىٰ ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه ، والكلام علىٰ (كل) وشمولها وشمول كل في كل مقام بحسب ما يحتف به من القرائن ، وقد حرفت المعتزلة المعنىٰ المفهوم من قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البَقَرَةِ : ٢٨٤] فقالوا : إنه قادر علىٰ كل ما هو مقدور له وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم .

وأما أهل السنة فعندهم أن الله علىٰ كل شيء قدير ، وكل ممكن فهو مندرج في هذا ، وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة ، فانه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر علىٰ تلك الأشياء ، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه علىٰ كل شيء قدير ، وإنما تنازعوا في (المعدوم) الممكن هل هو شيء أم لا ؟ والتحقيق أن المعدوم ليس بشيء في الخارج ، ولكن الله يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج : ١] ، فيكون شيئا في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج ، كما قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس : ٨٢] ، وقال تعالىٰ لزكريا : ﴿وَقَدْ

خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾ [مَرۡيَم : ٩] أي لم تكن شيئا في الخارج ، وان كان شيئا في علمه تعالىٰ ، وقال تعالىٰ : ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإِنسَان : ١] ، فهو سبحانه وتعالىٰ موصوف بصفات الكمال ، وليس له فيها شبيه فالمخلوق ، وان كان يوصف بأنه سميع بصير فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه إذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق كما يليق به ، ولا تنف عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق .

خلق الخلق بعلمه :

خلق أي أوجد وأنشأ وأبدع ويأتي خلق أيضا بمعنىٰ قدر ، والخلق مصدر وهو هنا بمعنىٰ المخلوق ، وقوله بعلمه : أي خلقهم عالما بهم ، قال تعالىٰ : ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلۡك : ١٤] ، واللطيف : هو الذي لطف علمه وخبرهُ حتىٰ أدرك السرائر الضمائر والخفايا والعيوب ودقائق الأمور والمصالح وغوامضها فالخفي في علمه مكشوف كالجلي من غير فرق ، وأنواع لطفه تعالىٰ لا يمكن حصرها فليطف بعبده في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه ، ويلطف بعبده في أموره الخارجية فيسوقه ويسوق إليه ما به صلاحه من حيث لا يشعر ، النوع الثاني لطفه بعبده ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه كما جرىٰ ليوسف عليه السلام ، وأما معنىٰ الخبير : فهو من

الخبرة بمعنىٰ كمال العلم ووثوقه والإحاطة بالأشياء علىٰ وجه الدقة والتفصيل هو العلم بكل ما خفي ودق .

فالعلم عندما يضاف إلىٰ الخفايا الباطنة يسمىٰ خبرة ويسمىٰ صاحبه خبيراً ، والله سبحانه لا يجري في الملك والملكوت شيء ولا يتحرك ذرة فما فوقها وما دونها ، ولا يسكن ولا يضطرب نفس ولا يطمئن إلا من عنده من ذلك خبرة ، قال ابن القيم (رحمه الله) :

وهو اللطيفُ بعبدهِ ولعبدهِ ... واللطفُ في أوصافهِ نوعان
إدراكُ أسرار الأمورِ بخبرةٍ ... واللطفُ عند مواقع الإحسانِ
فيريك عزتهُ ويبدي لطفهُ ... والعبدُ في الغفلات عن ذا الشأنِ

وقال تعالىٰ : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، ولهذه الآية شأن عظيم ، فهي من أعظم الآيات تفصيلاً لنعم الله المحيط ، والمعنىٰ أن عنده سبحانه خاصة مخازن الغيب أو المفاتيح التي يتوصل بها إليه ن فهو الذي يحيط بها علماً وسواه جاهل لا يعلم منها شيئاً إلا ما أعلمه الله فقوله تعالىٰ : ﴿ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا ﴾ جملة مؤكدة لمضمون الجملة الأولىٰ .

قال المناوي : فمن أدعىٰ علم شيء منها كفر ، وخص علم ما في البر والبحر بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله ولكونهما أكثر ما يشاهده الناس

ويتطلعون لعلم ما فيهما ، والخلاصة أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة والأحوال الظاهرة والباطنة والرطبة واليابسة ، وأنه لا يند عن علمه شيء في الزمان ولا في المكان ولا في البر ولا في البحر ولا في الجو ولا في الأرض .

روىٰ البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : مفاتح الغيب خمس : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ٣٤﴾ [لُقمَان : ٣٤].

وفي ذلك رد علىٰ المعتزلة قال الامام عبد العزيز المكي صاحب الامام الشافعي رحمه الله وجليسه في كتاب الحيدة الذي حكىٰ فيه مناظرته بشر المريسي عند المأمون حين سأله عن علمه تعالىٰ فقال بشر : أقول لا يجهل ، فجعل يكرر السؤال عن صفة العلم تقريرا له ، وبشر يقول لا يجهل ولا يعترف له أنه عالم بعلم ، فقال الإمام عبد العزيز : نفي الجهل لا يكون صفة مدح ، فان هذه الاسطوانة لا تجهل ، وقد مدح الله تعالىٰ الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم لا بنفي الجهل ، فمن أثبت العلم فقد نفىٰ الجهل ومن نفىٰ الجهل لم يثبت العلم ، وعلىٰ الخلق أن يثبتوا ما أثبته الله تعالىٰ لنفسه وينفوا ما نفاه ويمسكوا عما أمسك عنه .

تقدير الأقدار والآجال :

قال الطحاوي : **وقدر لهم أقدارا** :

ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفُرقان : ٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القَمَر : ٤٩] وقال تعالىٰ : ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨﴾ [الأَحزَاب : ٣٨] ، وقال تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأَعلَى : ٢ - ٣] ، وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : « سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول : كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه علىٰ الماء »[1] ، قال المناوي: أي أجرىٰ القلم علىٰ اللوح أو غيره بتحصيل مقاديرها علىٰ وفق ما تعلق به وإرادته وليس المراد هنا أصل التقدير لأنه أزلي لا ابتداء له : « قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة » معناه طول الأمد وتكثير ما بين الخلق والتقدير من المدد لا التحديد إذ أن مفهوم العدد لا يحتج به عند أهل الأصول ، « وعرشه علىٰ الماء » وفيه صراحة بأن أول المخلوقات العرش والماء ، واللّه أعلم .

---

(١) مسلم (٢٦٥٣) .

وقال الطحاوي : **وضرب لهم آجالا** :

يعني أن الله سبحانه وتعالىٰ قدر آجال الخلائق بحيث اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون قال تعالىٰ : ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٦١﴾ [النَّحل : ٦١] ، قال القرطبي : ولكل أمة أجل : أي وقت مؤقت ... فدل بهذا علىٰ أن المقتول إنما يقتل بأجله ، وأجل الموت هو وقت الموت ; كما أن أجل الدين هو وقت حلوله، وكل شيء وقت به شيء فهو أجل له ، وأجل الإنسان هو الوقت الذي يعلم الله أنه يموت الحي فيه لا محالة ، وهو وقت لا يجوز تأخير موته عنهٔ لا من حيث إنه ليس مقدورا تأخيره ، وقال كثير من المعتزلة إلا من شذ منهم: إن المقتول مات بغير أجله الذي ضرب لهٔ وإنه لو لم يقتل لحيي ، وهذا غلطٔ لأن المقتول لم يمت من أجل قتل غيره لهٔ بل من أجل ما فعله الله من إزهاق نفسه عند الضرب له ، فإن قيل: فإن مات بأجله فلم تقتلون ضاربه وتقتصون منه؟. قيل له: نقتله لتعديه وتصرفه فيما ليس له أن يتصرف فيهٔ لا لموته وخروج الروح إذ ليس ذلك من فعله ، ولو ترك الناس والتعدي من غير قصاص لأدىٰ ذلك إلىٰ الفساد ودمار العباد. وهذا واضح.

وهذا تقرير حسن منه رحمه الله فإنه تعالىٰ قال : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا﴾ [آل عِمۡرَان : ١٤٥] ، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : أي لا يموت أحد إلا بقدر الله وحتىٰ يستوفي المدة التي ضربها الله له

ولهذا قال : ﴿ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ كقوله : ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فَاطِر : ١١] ، وكقوله : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ ، وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء وترغيب لهم في القتال فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه ، ثم روىٰ عن حبيب بن ظبيان قال: قال رجل من المسلمين وهو حجر بن عدي ما يمنعكم أن تعبروا إلىٰ هؤلاء العدو هذه النطفة - يعني دجلة - "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا" ثم أقحم فرسه دجلة فلما أقحم ، أقحم الناس فلما رآهم العدو هربوا .

الأمر بطاعة الله :

فإنه تعالىٰ **لم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم** : فانه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأَنْعَام : ٢٨] وان كان يعلم أنهم لا يردون ولكن اخبر أنهم لو ردوا لعادو ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّ هُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفَال : ٢٣] ، وفي ذلك رد علىٰ الرافضة والقدرية والذين قالوا انه لا يعلم الشيء قبل أن يخلقه ويوجده وهي من فروع مسألة القدر

قولـه : **وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته** فذكر الشيخ هنا الأمر والنهي بعد ذكره الخلق والقدر إشارة إلىٰ أن الله تعالـــــىٰ خلق الخلق لعبادته ، كما قــال تعالــىٰ : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذَّارِيَات : ٥٦] وقال تعالــــىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [المُلْك : ٢].

المشيئة :

قال الطحاوي : **وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد الا ما شاء لهم فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن** ، كما قال تعالىٰ : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسَان : ٣٠] وقال : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التَّكْوِير : ٢٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأَنْعَام : ١١١] ، وقال تعالىٰ : ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأَنْعَام : ١٢٥] ، وقال تعالىٰ حكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه : ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هُود : ٣٤] ، وقال تعالىٰ : ﴿مَن يَشَإِ

ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩] ، إلىٰ غير ذلك من الأدلة علىٰ أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكيف يكون في ملكه ما لا يشاء ومن أضل سبيلا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر ، والكافر شاء الكفر فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله تعالىٰ الله عما يقولون علوا كبيرا ، فان قيل يشكل علىٰ هذا قوله تعالىٰ : ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] الاية ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] الآية وقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف: ٢٠] ، فقد ذمهم الله تعالىٰ حيث جعلوا الشرك كائنا منهم بمشيئة الله ، وكذلك ذم ابليس حيث أضاف الاغواء إلىٰ الله تعالىٰ اذ قال : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر: ٣٩].

وقد أنكر الله عز وجل عليهم ذلك لانهم احتجوا بمشيئته علىٰ رضاه ومحبته ، وقالوا لو كره ذلك وسخطه لما شاءه فجعلوا مشيئته دليل رضاه ، لأن المشيئة تعني الإرادة الكونية وهي غير مقصودة لعينها هنا ، فرد الله عليهم ذلك أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل علىٰ أمره به أو أنه أنكر عليهم بمعارضته شرعه وأمره الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر فلم يذكروا المشيئة علىٰ جهة

التوحيد وانما ذكروها معارضين بها لأمره دافعين بها لشرعه الذي أمرهم به وارتضاه لهم (أي الإرادة الشرعية) وقد احتج سارق علىٰ عمر رضي الله عنه بالقدر فقال وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره يشهد لذلك قوله تعالىٰ في الآية : ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الزُّمَر : ٢٥] ، فعلم أن مرادهم التكذيب فهو من قبل الفعل من أين له أن الله لم يقدره أطلع الغيب .

أنواع الهداية :

قال الطحاوي : **يهدي من يشاء ويعصم ويعافي فضلاً ، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلىٰ عدلاً** ، والكلام هنا علىٰ أنواع الهداية نوعان :

١. هداية البيان : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : أن الله تعالىٰ هدىٰ الناس هداية عامة ، بما جعل فيهم من العقل و بما أنزل إليهم من الكتب و أرسل إليهم من الرسل ، قال تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرَّحْمَٰن : ١ - ٤] و قال تعالىٰ : ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البَلَد : ١٠] ففي كل واحد ما يقتضي معرفته بالحق و محبته له و قد هداه إلىٰ أنواع من العلم يمكنه أن يتوصل بها إلىٰ سعادة الآخرة و جعل في فطرته محبة لذلك قد يعرض الإنسان عن طلب علم ما ينفعه ، ويستبدل بما هو أدنىٰ منه .

٢. هداية التوفيق : وهي أن يوفق الله تعالىٰ العبد لما يحبه ويرضىٰ ، وتسمىٰ أيضًا هداية خاصة ، قال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾ [آل عِمْرَان : ١٠١] ، وقال : ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦﴾ [الفَاتِحَة : ٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النِّسَاء : ٧٩] ، وقال عز وجل علىٰ لسان أهل الجنة : ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأَعْرَاف : ٤٣] ، وقد بين الله تعالىٰ أن هذه الهداية بيده أيضًا كما قال لنبينا ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القَصَص : ٥٦] ، ويقال أن هذه الآية نزلت بشأن أبي طالب عم النبي ﷺ الذي مات علىٰ الشرك ، ومنه قول رسول الله ﷺ : « إنما أنا مبلغ والله يهدي وقاسم والله يعطي فمن بلغه مني شيء بحسن رغبة وحسن هدىٰ ، فإن ذلك الذي يبارك له فيه ، ومن بلغه عني شيء بسوء رغبة وسوء هدىٰ ، فذاك الذي يأكل ولا يشبع »[1] .

قال ابن أبي العز في بيان قول الطحاوي الذي تقدم : هذا رد علىٰ المعتزلة في مسألة الهدىٰ والضلال ، حيث قالت المعتزلة الهدىٰ من الله بيان طريق الصواب ، والإضلال تسمية العبد ضالا وحكمه تعالىٰ علىٰ العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه ، وهذا مبني علىٰ أصلهم الفاسد أن أفعال

---

(١) البخاري (٥٣٩٣) .

العباد مخلوقة لهم (أي للعباد) ، والدليل علىٰ أن هذه الأفعال مخلوقة كما أن الهداية بيده تعالىٰ قولــه تعالىٰ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ [القَصَص : ٥٦] ولو كان الهدىٰ بيان الطريق لما صــح هذا النفي عن نبيه ، لانه بين الطريق لمن أحب وأبغض ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدَة : ١٣] فلو كان الهدىٰ من الله البيان وهو عام في كل نفس لما صح التقييد بالمشيئة .

الكلام علىٰ الصفات :

تقدم الكلام حول الصــفات العلية له تعالىٰ ، ولا بد أن نورد عقيدة أهل السنة والجماعة في بعض الصفات التي كانت مثار نزاع بين فرق المسلمين ، وتقرير العقيدة الحقة إن شاء الله تعالىٰ :

١. المحبة :

المحبة من الصــفات التي أثبتها لله تعالىٰ لنفســه بما يليق بجلاله ، مثل قوله : ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البَقَرَة : ١٩٥] ، ففي هذه الآية بيان لمحبة الله تعالىٰ لمن أحســن العمل (وهو إتيان به علىٰ أحســن أحواله وأكملها ، والإحسان هو أعلىٰ المقامات ، وعندما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الإحســان قال : أن تعبد الله كأنك تراه) ، والأمر في هذه الآية بالإحســان

لأن ذلك يجلب محبة الله تعالىٰ ، فإنه تعالىٰ أمر به فهو يحبه ويرضـــاه ، ومحبته جل وعلا تستلزم أن يجازيهم أحسن الجزاء ، والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة منها قوله تعالىٰ : ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٩﴾ [الحُجُرَات : ٩] ، وقوله : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾ [آل عِمْرَان : ٧٦] ، وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البَقَرَة : ٢٢٢] ، وقوله : ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائِدَة : ٥٤].

أما في السنة فما أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « إنَّ الله قال : من عادىٰ لي وليـًا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته »(١) .

وقد نفت الجهمية والمعتزلة صفة المحبة فقالوا : إن الله لا يُحَبَّ ولا يُحِبُّ ، وأولوا محبة العباد له بمعنىٰ محبتهم عبادته وطاعته ، ومحبته تعالىٰ للعباد بمعنىٰ إحسانه إليهم وإثابتهم ونحو ذلك ، وهذا تأويل باطل لأن مودته

(١) البخاري (٦٥٠٢) .

ومحبته سبحانه وتعالىٰ لعباده علىٰ حقيقتهما كما يليق بجلاله كسائر صفاته ليستا كمودة ومحبة المخلوقين .

٢ . رضىٰ الله وسخطه :

لقد ذكر في القرآن الكريم رضىٰ الله وسخطه ، فقال تعالىٰ : ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المَائِدَة : ١١٩] أي رضي عنهم بما عملوا من الطاعات الخالصة له ، ورضوا عنه بما جازاهم من النعيم ، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم قال تعالىٰ : ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوۡبَة : ٧٢] ورضاهم عنه هو رضىٰ كل منهم بمنزلته حتىٰ يظن أنه لم يؤت أحد خيراً مما أوتي . وقال تعالىٰ : ﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾ [النِّسَاء : ٩٣] ، فهنا وصف لغضبه تعالىٰ علىٰ قاتل المؤمن المتعمد ، قال تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [مُحَمَّد : ٢٨].

أما في السنة فقد وردت أحاديث عديدة فيها إثبات لهذه الصفات مثل قوله ﷺ : « أبغض الرجال إلىٰ الله الألد الخصم »(١) ، والألد : هو شديد الخصومة، وأيضاً قال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه

---

(١) البخاري (٤٥٢٣) .

ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، قالت : فقلت : يا رسول الله كلنا نكره الموت، قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه »(١) .

والشاهد من هذه الآيات والأحاديث أن فيها وصف الله تعالىٰ بالغضب والرضا واللعن والانتقام والكراهية ، وهذه كلها من صفات الأفعال التي يفعلها جل وعلا متىٰ شاء إذا شاء كيف شاء ، وأهل السنة يثبتون ذلك لله تعالىٰ كما أثبته لنفسه علىٰ ما يلق بجلاله .

٣. الإتيان والمجيء :

هذه من الصفات الاختيارية التي أثبتها أهل السنة له تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٢١٠﴾ [البَقَرَةِ : ٢١٠] ، وقوله تعالىٰ : ﴿كَلَّآۖ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفَجر : ٢١ - ٢٢] ، والشاهد من هذه الآيات أنها أفادت إثبات المجيء والإتيان لله يوم القيامة بذاته علىٰ ما يليق بجلاله لفصل القضاء بين عباده ومجيئه وإتيانه سبحانه من

---

(١) البخاري (٦٥٠٧) .

صفاته الفعلية يجب إثباتها علىٰ حقيقتها ولا يجوز تأويلها بمجيء أو إتيان أمره كما يفعله نفاة الصفات ، فيقولون : (وجاء ربك) أي جاء أمره وهذا من تحريف آيات الله تعالىٰ .

أما السنة فما ثبت عند البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له »[1] ، فنزول هنا نزول يليق بجلاله نؤمن به ولا نشبهه بنزول المخلوق لأنه سبحانه : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى : ١١] وهذا الحديث فيه إثبات النزول الإلهي – وهو من صفات الأفعال .

قال ابن القيم رحمه الله : والإتيان والمجيء المضاف إليه سبحانه نوعان: مطلق ومقيد ، فإذا كان المراد مجيء رحمته أو عذابه ونحو ذلك قيد بذلك كما في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف : ٥٢] ، والنوع الثاني: الإتيان والمجيء المطلق فهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه كقوله تعالىٰ في الآيات والأحاديث المتقدمة .

---

(١) البخاري (١١٤٥) .

٤ . صفة الوجه :

قال تعالىٰ : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرَّحْمَٰن : ٢٦ - ٢٧] ، وقـــال تعالىٰ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القَصَص : ٨٨] ، ففي هذه الآيات يخبر الله تعالىٰ أن كل من علىٰ الأرض يعدم ويموت ، ويبقىٰ وجهه سبحانه ، وقد دل الكتاب والسنة علىٰ إثبات هذه الصفة ، أما الكتاب فهذه الآية والتي بعدها ، فيها إثبات الوجه علىٰ الوجه اللائق بجلاله وعظمته ، وأما السنة ، فقد صح عنه ﷺ أنه كان يقول : « أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك الكريم »[١] .

وفيما تقدم رد عل من أنكر صفة الوجه أو أولها بتأويل باطل ، مثل تفسير الوجه بالثواب ، بل ما عليه أهل السنة هو إثبات ذلك بما يليق بجلاله وعظمته تعالىٰ ، ولا بد من الإشارة إلىٰ أن المضاف إلىٰ الله تعالىٰ نوعان :

الأول : أعيان قائمة بنفسها مثل قولنا ناقة الله وبيت الله وروح الله ، فهذه إضافتها إلىٰ الله تقتضي الاختصاص والتشريف ، وهي من جم المخلوقات .

النوع الثاني : صفاتٌ لا تقوم بنفسها كعلم الله وعزته ووجهه ، فهذه إن وردت مضافة إليه فهي من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف .

---

(١) أحمد (١٨٣٥١) .

٥ . صفة اليدين :

قال تعالىٰ علىٰ سبيل الإنكار والتوبيخ : ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص : ٧٥] أي أيُّ شيء منعك وصرفك وصدك عن السجود لما توليت خلقه بيدي من غير واسطة ، وأضاف الله تعالىٰ خلق آدم إليه تكريماً وتشريفاً ، مع أنه تعالىٰ خالق كل شيء ، كما أضاف إليه البيت والروح والناقة ، وفي تثنية اليد أعظم دلالة علىٰ أنهما ليست بمعنىٰ القدرة أو القوة ، بل لدلالة علىٰ أنهما صفتان من صفاته الذاتية .

وفي السنة ما يدل علىٰ ذلك أيضاً ما أخرجه مسلم عن أبي موسىٰ عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتىٰ تطلع الشمس من مغربها »(١) .

٦ . إثبات العينين لله تعالىٰ :

قال تعالىٰ : ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ [الطُّور : ٤٨] ، وقال : ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي

---

(١) مسلم (٢٧٥٩) .

بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءَ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ [القَمَر : ١٣ - ١٤] ، ففي هاتين الآيتين إثبات العينين علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته ، وهما من الصفات الذاتية التي لا تنفك عنه ، فيجب إثباتهما لله علىٰ الوجه اللائق بجلاله وعظمته لثبوتهما بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فتقدم ، وأما السنة فقول النبي ﷺ واصفًا حال الدجال : « إن الله ليس بأعور ألا أن المسيح الدجال أعور عينه اليمنىٰ كأنها عنبة طافية »(١) ، وفي حديثٍ آخرٍ : « إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَلَا يَبْصُقْ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ إِذَا صَلَّىٰ »(٢) .

فائدة :

لا بد من التفريق بين أسماء الله تعالىٰ التي بلفظ الاسم مثل الرحمن ، الرحيم ، السميع العليم ونحو ذلك ، فهذه أسماء يدل كل منها علىٰ صفة من صفات الله ، وبين الاسم المضاف الذي يشتق منه الفعل وما جاء بلفظ الاسم المضاف كقوله : ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ [النِّسَاء : ١٤٢] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٌ

---

(١) البخاري (٧٤٠٧) .

(٢) البخاري (٤٠٦) .

شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هُود : ١٠٢] ، فهذا الاسم يطلق علىٰ الله بلفظ الإضافة كما ورد ن وبلفظ الفعل فيقال (خادع المنافقين) (إن أخذ الله شديد) ولا يقال أن من أسمائه المخادع أو الخادع ولا الشديد ولا الآخذ ، ولأنه لم يرد ، ولأنه يفهم من هذه التسمية نوع من نقصٍ تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً .

كذلك من المفيد الإشارة في هذا المقام إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عِمْرَان : ٥٤] ، وقوله : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطَّارِق : ١٥ - ١٦] ، فهذه تطلق علىٰ الله تعالىٰ كما وردت ولا يجوز أن يشتق لله تعالىٰ منه اسم ، فلا يقال من أسمائه الماكر ولا الكائد ؛ لأنه لم يرد ، وقيل مكراً وكيداً فهو من باب المقابلة نحو : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشُّورَى : ٤٠].

والمعية تنقسم إلىٰ قسمين : عامة وخاصة ، وهما كسائر الصفات لا يعلم كيفيتها إلا الله عز وجل:

القسم الأول **العامة** وتكون للخلق كافة ودليلها من القرآن قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [المُجَادلَة : ٧] قال ابن القيم رحمه الله : تأمل كيف جعل نفسه رابع ثلاثة وسادس الخمسة إذ هو غيرهم سبحانه بالحقيقة لا يجتمعون معه في

جنس ولا فصل وقال : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة : ٧٣] فإنهم ساووا بينه وبين الاثنين في الألوهية ، والعرب تقول رابع أربعة وخامس خمسة ، وثالث ثلاثة لما يكون فيه المضاف من جنس المضاف .

المعية الخاصة : وتكون للمؤمنين خاصة كما قال تعالىٰ : والدليل عليه قوله تعالىٰ : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] ، وفي هذه الآية حكاية عما قاله ﷺ لأبي بكر وهما في الغار وقد أحاط المشركون بفم الغار عندما خرجوا في طلبه عليه السلام فلما رأىٰ أبو بكر ذلك أنزعج وقال : يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدمه لأبصرنا ، فقال له رسول الله ﷺ : ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة : ٤٠] ففي هذه الآية دليل علىٰ المعية الخاصة وهي من الصفات الفعلية .

أما الفرق بين المعية العامة والخاصة فيمكن حصرها الآتي :

١. إن المعية العامة من الصفات الذاتية ، أما الخاصة فهي من الصفات الفعلية .
٢. إن المعية العامة تكون في سياق تخويف ومحاسبة علىٰ الأعمال وحث علىٰ المراقبة ، في حين أن مقتضىٰ الخاصة الحفظ والعناية والنصرة والتوفيق والتسديد ، والحماية من المهالك واللطف بأنبيائه ورسله وأوليائه .

٣. إن المعية الخاصة مرتبة علىٰ الاتصاف بالأوصاف الجميلة والأخلاق الحميدة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وليس معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد : ٤] أنه مختلط بالخلق ، فإن هذا خلاف ما أجمع عليه السلف من الأمة وخلاف ما فطر الله عليه الخلق ، بل القمر من آيات الله من أصغر مخلوقاته وهو موضوع في السماء وهو مع المسافر وفوق المسافر أينما كان ، وهو سبحانه فوق العرش رقيب علىٰ خلقه مهيمن عليهم مطلع عليهم إلىٰ غير ذلك من معاني ربوبيته ، وكل هذا الكلام الذي ذكره الله أنه فوق العرش وأنه معنا علىٰ حقيقته لا يحتاج إلىٰ تحريف ، ولكن يصان عن الظنون الكاذبة مثل أن يظن أن ظاهر قوله : ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة : ١٤٤] تقله أو تظله ، وهذا باطل بإجماع أهل العلم والإيمان فإن الله قد وسع كرسيه السماوات والأرض ، وهو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، ويمسك السماء أن تقع علىٰ الأرض إلا بإذنه ، ومن آياته أن تقوم السماء بأمه .

الإيمان :

الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشـــرع والبيان كله حق والإيمان واحد وأهله في أصــله ســواء والتفاضل بينهم بالخشية والتقي ومخالفة الهوىٰ وملازمة الأولىٰ .

اعلم أن الناس اختلفوا فيما يقع عليه اســم الإيمان اختلافا كثيرا فذهب مالك والشافعي وأحمد والاوزاعي وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين إلىٰ أنه : تصــديق بالجنان وإقرار باللســان وعمل بالأركان ، وذهب كثير من أصــحابنا إلىٰ ما ذكره الطحاوي رحمه الله أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان .

ومنهم من يقول : إن الإقرار باللســـان ركن زائد ليس بأصــلي والىٰ هذا ذهب أبو منصــور الماتريدي ، ويروىٰ عن أبي حنيفة رحمه الله ، وذهب الكرامية إلىٰ : أن الإيمان هو الإقرار باللســـان فقط ، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان ، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي اوعدهم الله به ، وقولهم ظاهر الفساد .

وذهب الجهم بن صفوان وأبو الحسن الصالحي أحد رؤساء القدرية إلىٰ أن الإيمان هو المعرفة بالقلب ، وهذا القول أظهر فسادا مما قبله فإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين فإنهم عرفوا صدق موسىٰ وهارون عليهما الصلاة والســلام ولم يؤمنوا بهما ولهذا قال موســىٰ لفرعون : ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ

أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النمل: ١٤].

ولهذا والله أعلم قال الشيخ رحمه الله: (وأهله في أصله سواء) يشير إلىٰ أن التساوي إنما هو في أصله ولا يلزم منه بالتساوي من كل وجه، بل تفاوت درجات نور لا إله إلا الله في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالىٰ، فمن الناس من نور لا إله إلا الله في قلبه كالشمس ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري وآخر كالمشعل العظيم وآخر كالسراج المضيء وآخر كالسراج الضعيف ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم علىٰ هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علما وعملا، ومن عرف هذا عرف معنىٰ قول النبي إن الله حرم علىٰ النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله وقوله لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله.

والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقد فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلا كل

سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة وكثير منهم يدخل النار .

والأدلة علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار كثيرة جدا منها قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال : ٢] ، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مَرْيَم : ٧٦] ، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المُدَّثِّر : ٣١] وغيرها من الآيات .

وقد وصف النبي النساء بنقصان العقل والدين ، وقال : « لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » (١) ، والمراد نفي الكمال ونظائره كثيرة وحديث شعب الإيمان وحديث الشفاعة وانه يخرج من النار من في قلبه أدنىٰ أدنىٰ أدنىٰ مثقال ذرة من إيمان ، فكيف يقال بعد هذا أن إيمان أهل السماوات والأرض سواء ، وإنما التفاضل بينهم بمعانٍ أخر غير الإيمان .

وكلام الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنىٰ كثير أيضا منه قول ابي الدرداء رضي الله عنه : « من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه ، وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو ام ينتقص » ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : « لأصحابه هلموا نزدد إيمانا ، فيذكرون الله تعالىٰ عز وجل» ،

---

(١) البخاري (١٥) .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه : « اللهم زدنا إيمانا ويقينا وفقها» ، وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل : « اجلس بنا نؤمن ساعة » ، ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه .

وكذلك هل يستلزم الإسلام الإيمان فيه نزاع بين العلماء ، وإنما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النار باسم الإيمان كما قال تعالىٰ : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يُونُس : ٦٢ - ٦٣] وقال تعالىٰ : ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحَدِيد : ٢١] ، وأما اسم الإسلام مجردا فما علق به في القرآن دخول الجنة لكنه فرضه وأخبر انه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه وبه بعث النبيين : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمْرَان : ٨٥].

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر ، فمثل الاسلام من الايمان كمثل الشهادتين إحداهما من الاخرىٰ فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرىٰ في المعنىٰ والحكم كشيء واحد كذلك الإسلام والايمان لا إيمان لمن لا إسلام له ولا إسلام لمن لا إيمان ، له إذ لا يخلوا المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه ولا يخلوا المسلم من إيمان به يصح إسلامه ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة .

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان قوله تعالىٰ : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجُرَات : ١٤] ، ورجح هنا أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان لا أنهم منافقون كما نفىٰ الإيمان عن القاتل والزاني والسارق ومن لا أمانة له ويؤيد هذا سياق الآية فإن السورة من أولها إلىٰ هنا في النهي عن المعاصي وأحكام بعض العصاة ونحو ذلك وليس فيها ذكر المنافقين .

أركان الإيمان :

قال الطحاوي : **والايمان هو الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالىٰ** .

إن هذه الخصال هي أصول الدين وبها أجاب النبي في حديث جبرائيل المشهور المتفق علىٰ صحته حين جاء إلىٰ النبي علىٰ صورة رجل أعرابي وسأله عن الإسلام فقال : « أن تشهد لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت اليه سبيلا ، وسأله عن الإيمان ، فقال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ، وسأله عن الإحسان فقال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ».

والكتاب والسنة مملوءان بما يدل علىٰ أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق ، وهذا اكثر من معنىٰ الصلاة والزكاة ، فإن تلك إنما فسرتها السنة والإيمان بين معناه الكتاب والسنة فمن الكتاب قوله تعالىٰ : ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج : ٣٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحُجُرَات : ١٥] ، وقوله تعالىٰ : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النِّسَاء : ٦٥].

والتحقيق أن النبي ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقا ، ويجب علىٰ كل من كان قادرا عليه ليعبد الله مخلصا له الدين وهذه هي الخمس (أركان الإسلام) ، وما سوىٰ ذلك فإنما يجب بأسباب مصالح فلا يعم وجوبها جميع الناس ، بل إما أن يكون فرضا علىٰ الكفاية كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وما يتبع ذلك من إمارة وحكم وفتيا وإقراء وتحديث وغير ذلك ، وأما ما يجب بسبب حق الآدميين فيختص به من وجب له وعليه وقد يسقط بإسقاطه من قضاء الديون ورد الأمانات والإنصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض وحقوق الزوجة والأولاد وصلة الأرحام ونحو ذلك .

وقوله والقدر (خيره وشره وحلوه ومره) من الله تعالىٰ تقدم قوله في حديث جبرائيل وتؤمن بالقدر خيره وشره وقال تعالىٰ : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا

مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التَّوْبَة: ٥١] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النِّسَاء: ٧٨ - ٧٩].

فإن قيل فكيف الجمع بين قوله (كل من عند الله) وبين قوله (فمن نفسك) ؟

قيل قوله كل من عند الله الخصب والجدب والنصر والهزيمة كلها من عند الله وقوله فمن نفسك أي ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشُّورَى: ٣٠]، والمراد بالحسنة هنا النعمة وبالسيئة البلية في أصح الأقوال، وقد قيل الحسنة الطاعة والسيئة المعصية، وقيل الحسنة ما أصابه يوم بدر والسيئة ما أصابه يوم أحد .

وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالىٰ: (فمن نفسك) فإنهم يقولون إن فعل العبد حسنة كان أو سيئة فهو منه لا من الله والقرآن قد فرق بينهما وهم لا يفرقون ولأنه قال تعالىٰ كل من عند الله فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال بل في الجزاء وقوله بعد هذا ما أصابك من حسنة و من سيئة مثل قوله وإن تصبهم حسنة و

إن تصــبهم ســيئة وفرق ســبحانه وتعالىٰ بين الحســنات التي هي النعم وبين السـيئات التي هي المصـائب فجعل هذه من الله وهذه من نفس الإنسـان لأن الحسنة مضافة إلىٰ الله إذ هو أحسن بها من كل وجه فما من وجه من أوجهها إلا وهو يقتضــي الإضــافة إليه ، وأما الســيئة فهو إنما يخلقها لحكمة وهي باعتبار تلك الحكمة من إحســانه فإن الرب لا يفعل ســيئة قط بل فعله كله حسن وخير .

ولذا قال الطحاوي : **ونحن مؤمنون بذلك كله لا نفرق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم علىٰ ما جاؤوا به** إذ فيه إشارة إلىٰ ما تقدم مما يجب الإيمان به تفصــيلا ، وقوله لا نفرق بين أحد من رســله إلىٰ آخر كلامه : أي لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بل نؤمن بهم ونصــدقهم كلهم فإن من آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل ، قال تعالىٰ : ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ [النِّسَاء : ١٥٠] فإن المعنىٰ الذي لأجله آمن بمن آمن به منهم موجود في الذي لم يؤمن به وذلك الرســول الذي آمن به قد جاء بتصــديق بقية المرســلين ، فإذا لم يؤمن ببعض المرســلين كان كافرا بمن في زعمه أنه مؤمن به ؛ لأن ذلك الرســول قد جاء بتصــديق المرســلين كلهم فكان كافرا حقا وهو يظن انه مؤمن فكان من الأخســرين أعمالا الذين ضــل ســعيهم في الحياة الدنيا وهم يحســبون أنهم يحسنون صنعا .

أهل الكبائر :

قال الطحاوي : **وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون ، وان لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين وهم في مشيئته وحكمه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله كما ذكر عز وجل في كتابه :** ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النِّسَاء : ١١٦] **وان شاء عذبهم في النار بعدله ثم يخرجهم منها برحمته وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثهم إلىٰ جنته.**

هذا بيان لعقيدة أهل السنة والجماعة في حكم أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ ، فأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون، رد لقول الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار ، لكن الخوارج تقول بتكفيرهم والمعتزلة بخروجهم عن الإيمان لا بدخولهم في الكفر ، بل لهم منزلة بين منزلتين .

وتخصيص أمة محمد يفهم منه أن أهل الكبائر من أمة غير محمد قبل نسخ تلك الشرائع به حكمهم مخالف لأهل الكبائر من أمة محمد ، وفي ذاك نظر فإن النبي اخبر أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ولم يخص أمته بذلك ، بل ذكر الإيمان مطلقا فتأمله .

واختلف العلماء في الكبائر علىٰ أقوال فقيل سبعة وقيل سبعة عشر وقيل ما اتفقت الشرائع علىٰ تحريمه ، وقيل ما يسد باب المعرفة بالله وقيل ذهاب الأموال والأبدان وقيل سميت كبائر بالنسبة والإضافة إلىٰ ما دونها ، وقيل لا

تعلم أصلا أو أنها اخفيت كليلة القدر ، وقيل إنها إلىٰ السبعين أقرب وقيل كل ما نهىٰ الله عنه فهو كبيرة ، وقيل إنها ما يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب وهذا امثل الأقوال .

واختلفت عبارات السلف في تعريف الصغائر منهم من قال الصغيرة ما دون الحدين حد الدنيا وحد الآخرة ، ومنهم من قال كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار ، ومنهم من قال الصغيرة ما ليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة والمراد بالوعيد الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب .

أما الذنوب الواردة في النص علىٰ أنها كبيرة كالشرك والقتل والزنا والسحر وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ونحو ذلك كالفرار من الزحف وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين واليمين الغموس وشهادة الزور وأمثال ذلك .

ويمكن أن نرجح هذه الذنوب بكونها من الكبائر للآتي :

١. أنه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل رضي الله عنهم وغيرهم

٢. أن الله تعالىٰ قال : ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النِّسَاء : ٣١] ، فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر .

٣. أن هذا الضـــابط مرجعه إلىٰ ما ذكره الله ورســـوله من الذنوب ، فهو حد متلقىٰ من خطاب الشارع

٤. أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر بخلاف تلك الأقوال ، فإن من قال سـبعة أو سـبعة عشـر أو إلىٰ السـبعين اقرب مجرد دعوىٰ ، ومن قال ما اتفقت الشــرائع علىٰ تحريمه دون ما اختلفت فيه يقتضــي أن شــرب الخمر والفرار من الزحف والتزوج ببعض المحـارم والمحرم بالرضــاعة والصــهرية ونحو ذلك ليس من الكبائر لأنها تختلف باختلاف الشرائع .

وقولــه (وإن لم يكونوا تائبين) ؛ لأن التوبة لا خلاف أنها تمحو الذنوب ، وإنمـا الخلاف في غير التـائـب وقولـه بعـد أن لقوا الله تعـالىٰ عـارفين لو قـال مؤمنين بدل قوله عـارفين كـان أولىٰ لأن من عرف الله ولـم يؤمن به فهو كـافر وإنما اكتفىٰ بالمعرفة وحدها الجهم وقوله مردود باطل كما تقدم فإن إبليس عـارف بربه : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٣٦﴾ [الحِجْر : ٣٦] قال : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢﴾ [ص : ٨٢].

ولا بد من التنبيه إلىٰ أن الله تعالىٰ فصـل الله تعالىٰ بين الشـرك وغيره ؛ لأن الشـرك اكبر الكبائر كما قال : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النِّسَـاء : ٤٨] ، وأخبر الله تعالىٰ أن الشـرك غير مغفور وعلق غفران ما دونه بالمشـيئة والجائز

يعلق بالمشيئة دون الممتنع ، ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنىٰ ، ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به غير معلق بالمشيئة كما قال تعالىٰ : ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر : ٥٣] فوجب أن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوىٰ الشرك بالله قبل التوبة .

الصلاة خلف كل بر وفاجر :

قوله : **ونرىٰ الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة وعلىٰ من مات منهم .**

ورد في صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكذا أنس بن مالك ، وكان الحجاج فاسقا ظالما ، وفي صحيحه أيضا أن النبي قال : « يصلون لكم فإن أصابوا فلكم ولهم وأن أخطأوا فلكم وعليهم »[1] .

واعلم رحمك الله وإيانا أنه يجوز للرجل أن يصلي خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقا باتفاق الأئمة وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد

(١) البخاري (٦٩٤) .

إمامه ولا أن يمتحنه فيقول ماذا تعتقد بل يصـــلي خلف المســـتور الحال ولو صلىٰ خلف مبتدع يدعوا ألي بدعته أو فاسق ظاهر الفسق وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصــلاة إلا خلفه كإمام الجمعة والعيدين والإمام في صــلاة الحج بعرفة ونحو ذلك ، فإن المأموم يصلي خلفه عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها ، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون كما كان عبد الله بن عمر يصــلي خلف الحجاج بن يوســف ، وكذلك أنس رضــي الله عنه كما تقدم وكذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط وكان يشرب الخمر حتىٰ إنه صلىٰ بهم الصبح مرة أربعا ثم قال : أزيدكم فقال : له ابن مسعود ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة .

والفاسق والمبتدع صلاته في نفسها صحيحة فإذا صلىٰ المأموم خلفه لم تبطل صلاته لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، ومن ذلك أن من أظهر بدعة وفجورا لا يترتب إماما للمسلمين ، فإنه يستحق التعزيز حتىٰ يتوب ، فإن أمكن هجره حتىٰ يتوب كان حســنا ، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصــلاة خلفه وصــلىٰ خلف غيره أثر ذلك في إنكار المنكر حتىٰ يتوب أو يعزل أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه ، فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان في ذلك مصلحة شرعية ولم تفت المأموم جمعة

ولا جماعة ، وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة رضي الله عنهم .

لا نشهد إلا لمن شهد الله له بالجنة ، ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً .

يريد انا لا نقول عن أحد معين من اهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا من أخبر الصادق أنه من أهل الجنة كالعشرة رضي الله عنهم ، وإن كنا نقول إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ولكنا نقف في الشخص المعين فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم لأن الحقيقة باطنة وما مات عليه لا نحيط به لكن نرجو للمحسنين ونخاف علىٰ المسيئين .

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال :

أحدها: أن لا يشهد لأحد إلا للأنبياء وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية والأوزاعي .

والثاني: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث .

والثالث : أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون كما في الصحيحين أنه : «مر بجنازة فأثنوا عليها بخير ، فقال النبي ﷺ : وجبت ومر بأخرىٰ فأثنىٰ عليها بشر فقال وجبت ، وفي رواية كرر وجبت ثلاث مرات ،

فقال عمر : يا رسول الله ما وجبت ؟ فقال رسول الله : هذا أثنيتم عليه خيرا وجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرا وجبت له النار انتم شهداء الله في الأرض »[1] .

ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر منهم شيء من ذلك ونذر سرائرهم إلىٰ الله تعالىٰ .

لأنا قد أمرنا بالحكم بالظاهر ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم ، قال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحُجُرَات : ١١] ، وقال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحُجُرَات : ١٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإِسْرَاء : ٣٦].

قوله **ولا نرىٰ السيف علىٰ أحد من أمة محمد إلا من وجب عليه السيف.**

في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، إلا بإحدىٰ ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ،

---

(١) البخاري (١٣٦٧) .

والتارك لدينه المفارق للجماعة »[1] .

طاعة أولي الأمر :

قوله : **ولا نرىٰ الخروج علىٰ ائمتنا وولاة امورنا وإن جاروا ولا ندعوا عليهم ولا ننزع يدا من طاعتهم ونرىٰ طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة ما لم يأمروا بمعصية وندعو لهم بالصلاح والمعافاة .**

قال تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النِّسَاء : ٥٩] ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصا الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ومن يعص الأمير فقد عصاني »[2] ، وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : « إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدا حبشيا مجدع الأطراف » ، وعند البخاري : « ولو لحبشي : كأن رأسه زبيبة »[3] ، وفي الصحيحين أيضا : «علىٰ المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر

---

(١) البخاري (٦٨٧٨) .

(٢) البخاري (٧١٣٧) .

(٣) البخاري (٧١٤٢) .

بمعصية ، فلا سمع ولا طاعة »[1] .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : من رأىٰ من أميره شيئًا يكرهه ، فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً ، فمات فميتته جاهلية»[2]، وفي رواية : « فقد خلع رقبة الإسلام من عنقه » ، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منها »[3] ، وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم ، فقلنا : يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك ؟ قال : لا ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولي عليه والٍ ، فرآه يأتي شيئًا من معصية الله ، فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدا من طاعته »[4] .

وقد دل الكتاب والسنة علىٰ وجوب طاعة أولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية فتأمل قوله تعالىٰ : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ

---

(١) البخاري (٢٩٥٥) .

(٢) البخاري (٧٠٥٤) .

(٣) مسلم (١٨٥٣) .

(٤) مسلم (١٨٥٥) .

﴿ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النِّسَاء : ٥٩] ، كيف قال : وأطيعوا الرسول ، ولم يقل وأطيعوا أولي الأمر منكم ؛ لأن أولي الأمر لا يفردون بالطاعة ، بل يطاعون فيما هو طاعة الله ورسوله ، واعاد الفعل مع الرسول ؛ لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله ، فإن الرسول ﷺ لا يأمر بغير طاعة الله ، بل هو معصوم في ذلك ، وأما ولي الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله فلا يطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله .

وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب علىٰ الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل في الصبر علىٰ جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور ، فإن الله تعالىٰ ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا والجزاء من جنس العمل فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل قال تعالىٰ : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشُّورَى : ٣٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عِمۡرَان : ١٦٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النِّسَاء : ٧٩] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾ [الأَنۡعَام : ١٢٩] ، فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم فليتركوا الظلم .

قولـه : **ونتبع السنة والجماعة ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة .**

السـنة طريقة الرسـول والجماعة جماعة المسـلمين وهم الصـحابة والتابعون لهم بإحسان الىٰ يوم الدين فاتباعهم هدىٰ وخلافهم ضلال قال الله تعالىٰ لنبيه : ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١﴾ [آل عِمْرَان : ٣١] ، وقال : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝١١٥﴾ [النِّسَاء : ١١٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٥٤﴾ [النُّور : ٥٤].

وثبت في السـنن الحديث الذي صـححه الترمذي عن العرباض بن سـارية قال : « وعظنا رسـول الله ﷺ موعظة بليغة ، ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسـول الله كأن هذه موعظة مودع ، فماذا تعهد إلينا ؟فقال : أوصـيكم بالسـمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعدي فسـيرىٰ اختلافا كثيراً ، فعليكم بسـنتي وسـنة الخلفاء الراشـدين المهديين من بعدي تمسـكوا بها ، وعضـوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »(١) ، وقال ﷺ أيضـًا : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم علىٰ

---

(١) أحمد (١٧١٤٢) .

ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق علىٰ ثلاث وسبعين ملة – يعني الأهواء – كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة » وفي رواية قالوا : « من هي يا رسول الله ؟ قال : ما عليه اليوم أنا وأصحابي »[1] .

المسح علىٰ الخفين :

قوله : **ونرىٰ المسح علىٰ الخفين في السفر والحضر كما جاء في الأثر .**

تواترت السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح علىٰ الخفين وبغسل الرجلين، والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة ، فيقال لهم الذين نقلوا عن النبي الوضوء قولاً وفعلاً ، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضؤا علىٰ عهده ، وهو يراهم ويقرهم ونقلوه إلىٰ من بعدهم أكثر عدداً من الذين نقلوا لفظ هذه الآية، فإن جميع المسلمين كانوا يتوضئون علىٰ عهده ، ولم يتعلموا الوضوء إلا منه، فإن هذا العمل لم يكن معهوداً عندهم في الجاهلية ، وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يحصي عدده إلا الله تعالىٰ ، ونقلوا عنه ذكر غسل الرجلين في ما شاء الله من الحديث حتىٰ نقلوا عنه من غير وجه في كتب الصحيح وغيرها أنه ﷺ قال : « ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار »[2] ، مع أن الفرض إذا كان

---

(١) أحمد (١٦٩٣٧) .

(٢) مسلم (٢٤١) .

مســح ظاهر القدم كان غســل الجميع كلفة لا تدعوا إليها الطباع ، كما تدعو الطباع إلىٰ طلب الرياسة والمال ، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء لكان في نقل لفظ آية الوضــوء أقرب إلىٰ الجواز ، واذا قالوا لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ ، فثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولىٰ وأكمل .

ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السـنة ، فإن المســح كما يطلق ويراد به الإصـابة كذلك يطلق ويراد به الإسـالة كما تقول العرب تمسـحت للصـلاة ، وفي الآية ما يدل علىٰ أنه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسيم الغسل، بل المسح الذي الغسل قسم منه ، فإنه قال إلىٰ الكعبين ولم يقل إلىٰ الكعاب كما ، قال إلىٰ المرافق ، فدل علىٰ أنه ليس في كل رجل كعب واحد ، كما في كل يد مرفق واحد بل في كل رجل كعبان ، فيكون تعالىٰ قد أمر بالمســح إلىٰ العظمين الناتئين ، وهذا هو الغســل فإن من يمســح المســح الخاص يجعل المســح لظهور القدمين وجعل الكعبين في الآية غاية يرد قولهم فدعواهم أن الفرض مســح الرجلين إلىٰ الكعبين اللذين هما مجتمع الســاق والقدم عند معقد الشراك مردود بالكتاب والسنة .

وفي الآية قراءتان مشـهورتان النصـب والخفض وتوجيه إعرابهما مبسـوط في موضـعه وقراءة النصـب نص في وجوب الغسـل ؛ لأن العطف علىٰ المحل إنما يكون إذا كان المعنىٰ واحدا كقوله :

فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وليس معنىٰ مسحت برأسي ورجلي هو معنىٰ مسحت رأسي ورجلي ، بل ذكر الباء يفيد معنىٰ زائدا علىٰ مجرد المسح وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس فتعين العطف علىٰ قوله وأيدكم فالسنة المتواترة تقضي علىٰ ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن ، فإن الرسول بين للناس لفظ القرآن ومعناه ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله ابن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتىٰ يتعلموا معناها ، وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيه علىٰ قلة الصب في الرجلين فإن السرف يعتاد فيهما كثيرا والمسألة معروفة والكلام عليها في كتب الفروع .

وجوب الجهاد :

قال الطحاوي : **والحج والجهاد ماضيان مع أولي الأمر من المسلمين برهم وفاجرهم الىٰ قيام الساعة الساعة لا يبطلهما شيء ولا ينقضهما .**

يشير الشيخ رحمه الله الىٰ الرد علىٰ الرافضة حيث قالوا : لا جهاد في سبيل الله حتىٰ يخرج الرضىٰ من آل محمد وينادي مناد من السماء اتبعوه ، وبطلان هذا القول أظهر من أن يستدل عليه بدليل ، وهم شرطوا في الإمام أن يكون معصوما اشتراطا من غير دليل ، بل في صحيح مسلم عن عوف بن مالك

الأشجعي قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضـــونكم وتلعنونهم ويلعنونكم ، قال قلت : يا رســـول الله ، أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال : لا ما أقاموا فيكم الصـــلاة ، ألا من ولي عليه والٍ فرآه يأتي شـــيئا من معصـــية الله فليكره ما يأتي من معصـــية الله ، ولا ينزعن يداً من طاعته»[1].

وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث في الإمامة ، ولم يقل إن الإمام يجب أن يكون معصوما والرافضة أخسر الناس صفقة في هذه المسألة ؛ لأنهم جعلوا الإمام المعصـــوم هو الإمام المعدوم الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا فإنهم يدعون أنه الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكري الذي دخل السرادب في زعمهم سنة ٢٦٠هـ أو قريبا من ذلك بسامراء ، وقد يقيمون هناك دابة إما بغله ، وإما فرســـا ليركبها إذا خرج ويقيمون هناك في أوقات عينوا فيها من ينادي عليه بالخروج يا مولانا اخرج يا مولانا اخرج ويشـــهرون الســـلاح ولا أحد هناك يقاتلهم إلىٰ غير ذلك من الأمور التي يضحك عليهم منها العقلاء .

---

(١) مسلم (١٨٥٥) .

وقوله مع أولي الأمر برهم وفاجرهم ؛ لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر فلا بد من سائس يسوس الناس فيهما ويقاوم العدو ، وهذا المعنىٰ كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر.

الكرام الكاتبين :

قوله : **ونؤمن بالكرام الكاتبين فان الله قد جعلهم علينا حافظين** .

قال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار : ١٠ - ١٢] ، وقال تعالىٰ : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق : ١٧ - ١٨]، وقال تعالىٰ : ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرَّعْد : ١١] .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم ، فيسألهم - والله أعلم بهم - كيف تركتم عبادي فيقولون أتيناهم وهم يصلون وفارقناهم وهم يصلون »(١) ، وفي الحديث الآخر : « إن

---

(١) البخاري (٥٥٥) .

معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع فاستحيوهم واكرموهم»[1].

جاء في التفسير : اثنان عن اليمين وعن الشمال ، يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وواحد أمامه فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا حافظان وكاتبان ، وعن ابن عباس يحفظونه من أمر الله قال ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه فإذا جاء قدر الله خلوا عنه .

وروى مسلم وغيره قال : «قال رسول الله ﷺ : ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي لكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير »[2] ، ومعنى فأسلم : أي فاستسلم وانقاد لي في أصح القولين ، ولهذا قال : فلا يأمرني إلا بخير .

ومعنى : (يحفظونه من أمر الله) قيل حفظهم له من أمر الله : أي الله أمرهم بذلك يشهد لذلك قراءة من قرأ : (يحفظونه بأمر الله) .

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل وكذلك النية لأنها فعل القلب فدخلت في عموم يعلمون ما تفعلون ويشهد لذلك قوله

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي في سننه : رقم ٢٨٠٠ وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

(٢) مسلم (٢٨١٤) .

قال الله عز وجل في الحديث القدسي : « إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة وإذا هم عبدي بحسنة ، فلم يعملها ، فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرا »(١) ، وقال رسول الله ﷺ : «قالت الملائكة ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو ابصر به ، فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة إنما تركها من جرائي » ، خرجاهما في الصحيحين واللفظ لمسلم(٢) .

ملك الموت :

قال الطحاوي : **ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين .**

قال تعالىٰ : ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١١﴾ [السَّجْدَة : ١١] ، ولا تعارض هذه الآية قوله تعالىٰ : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأَنْعَام : ٦١] ، وقوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الزُّمَر : ٤٢] ؛ لأن ملك الموت يتولىٰ قبضها واستخراجها ،

---

(١) البخاري (٧٥٠١) .

(٢) مسلم (١٢٩) .

ثم يأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب وتولونها بعده كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره فصحت إضافة التوفي إلىٰ كل بحسبه .

والذي يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل أن الروح والنفس مخلوقة ، أما الروح فهي تدخل تحت عموم الخطاب القرآني في قوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزُّمَر : ٦٢] فهذا عام لا تخصيص فيه ، ومع ذلك فقد اختلف الناس في ماهيتها ، قال تعالىٰ : ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإِسۡرَاء : ٨٥] ، وهذا مما خفي علىٰ الإنسان ونرجع علمه إلىٰ الله تعالىٰ .

أما النفس فتعرف بأنها : جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي خفيف حي متحرك ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد وسريان الدهن في الزيتون ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي ذلك الجسم اللطيف ساريا في هذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة الإرادية ، وإذا فسدت هذه بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها وخرجت عن قبول تلك الآثار فارق الروح البدن وانفصل إلىٰ عالم الأرواح ، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ : ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزُّمَر : ٤٢] ففيها الإخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها ، وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ

﴿فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] ففيها بسط الملائكة أيديهم لتناولها ووصفها بالإخراج والخروج والإخبار بعذابها ذلك اليوم والإخبار عن مجيئها إلىٰ ربها .

وقال النبي ﷺ في حديث بلال : « قبض أرواحكم وردها عليكم »[(١)] ، وقال : « نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة »[(٢)] ، وسيأتي في الكلام علىٰ عذاب القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت لها وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء وأنها تصعد ويوجد منها من المؤمن كأطيب ريح ومن الكافر كأنتن ريح إلىٰ غير ذلك من الصفات .

وأما اختلاف الناس في مسمىٰ النفس والروح هل هما متغايران أو مسماهما واحد ؟ فالتحقيق أن النفس تطلق علىٰ أمور وكذلك الروح ، فيتحد مدلولها تارة ويختلف تارة ، فالنفس تطلق علىٰ الروح ولكن غالب ما يسمىٰ نفسا إذا كانت متصلة بالبدن ، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها ، ويطلق علىٰ الدم ففي الحديث : « ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء

---

(١) البخاري (٥٩٥) .

(٢) أحمد (١٥٧٩٩) .

إذا مات فيه »[1] ، والنفس الذات ، كما في قوله تعالىٰ : ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النُّور : ٦١] ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النِّسَاء : ٢٩] ونحو ذلك .

وأما الروح فلا يطلق علىٰ البدن لا بانفراده ولا مع النفس وتطلق الروح علىٰ القرآن وعلىٰ جبرائيل : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشُّورَىٰ : ٥٢] ، ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشُّعَرَاء : ١٩٣].

وقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة انفس : مطمئنة ولوامة وأمارة ، قالوا وإن منهم من تغلب عليه هذه ، ومنهم من تغلب عليه هذه ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾ [الفَجۡر : ٢٧] ، ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾ [القِيَامَة : ٢] ، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يُوسُف : ٥٣] ، والتحقيق أنها نفس واحدة لها صفات فهي أمارة بالسوء ، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة تفعل الذنب ، ثم تلوم صاحبها ، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنة ولهذا قال النبي ﷺ : « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن »[2] ، مع قوله : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[3] .

---

(١) البيهقي (١/ ٢٥٢) .

(٢) أحمد (١١٤) .

(٣) البخاري (٢٤٧٥) .

فتنة القبر :

قال الطحاوي : **وبعذاب القبر لمن كان له أهلا وسؤال منكر ونكير في قبره عن ربه ودينه ونبيه على ما جاءت به الاخبار عن رسول الله وعن الصحابة رضوان الله عليهم والقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران .**

قال تعالىٰ : ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر : ٤٥ - ٤٦] ، وقال تعالىٰ : ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧﴾ [الطور : ٤٤ - ٤٧] ، وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وان يراد به عذابهم في البرزخ ، وهو أظهر لأن كثيرا منهم مات ولم يعذب في الدنيا أو المراد أعم من ذلك .

وعن البراء بن عازب قال : « خرجنا مع النبي صلىٰ الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلىٰ القبر ولما يلحد فجلس رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وجلسنا حوله ، وكأن علىٰ رءوسنا الطير وفي يده عود ينكت في الأرض ، فرفع رأسه فقال : استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ، ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان

الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتىٰ يجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتىٰ يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجي إلىٰ مغفرة من الله ورضوان ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتىٰ يأخذوها ، فيجعلوها في ذلك الكفن ، وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت علىٰ وجه الأرض ، قال فيصعدون بها فلا يمرون يعني بها علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتىٰ ينتهوا بها إلىٰ السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلىٰ السماء التي تليها حتىٰ ينتهىٰ به إلىٰ السماء السابعة ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلىٰ الأرض ، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام ، فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلىٰ الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ،

فيقول أبشــر بالذي يســرك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول له من أنت فوجهك الوجه يجيء بالخير ؟ فيقول : أنا عملك الصــالح فيقول : رب أقم الساعة حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتىٰ يجلس عند رأســه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلىٰ سخط من الله وغضب قال : فتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السـفود من الصــوف المبلول ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتىٰ يجعلوها في تلك المســوح ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض ، فيصــعدون بها فلا يمرون بها علىٰ ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمىٰ بها في الدنيا حتىٰ ينتهىٰ به إلىٰ السماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح له ، ثم قرأ رسـول الله صـلىٰ الله عليه وسـلم : ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف : ٤٠] ، فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلىٰ ، فتطرح روحه طرحا ثم قرأ : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج : ٣١] ، فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري فيقولان : له ما دينك فيقول

هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء أن كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلىٰ النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتىٰ تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد فيقول من أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة »[1] .

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا نتكلم في كيفيته إذ ليس للعقل وقوف علىٰ كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذا الدار والشرع لا يأتي بما تحيلة العقول ، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول، فإن عود الروح إلىٰ الجسد ليس علىٰ الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا ، فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنينا .

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلىٰ وجه الأرض .

الثالث تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه .

---

(١) أحمد (١٨٥٣٤) .

الرابع : تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقا كليا بحيث لا يبقىٰ لها إليه التفات البتة فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتا ولا نوما ولا فسادا فالنوم أخو الموت فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة .

وليس السؤال في القبر للروح وحدها كما قال ابن حزم وغيره وأفسد منه قول من قال إنه للبدن بلا روح ، والأحاديث الصحيحة ترد القولين وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعا باتفاق أهل السنة والجماعة تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قبر أو لم يقبر أكلته السباع أو احترق حتىٰ صار رمادا ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر وصل إلىٰ روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلىٰ المقبور وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير فلا يحمل ما لا يحتمله .

فالحاصل أن الدور ثلاث : دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار ، وقد جعل الله لكل دار أحكاما تخصها وركب هذا الإنسان من بدن ونفس وجعل أحكام الدنيا علىٰ الأبدان والأرواح تبع لها وجعل أحكام البرزخ علىٰ الأرواح والأبدان تبع لها فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب علىٰ الأرواح والأجساد جميعا ، فإذا تأملت هذا المعنىٰ حق التأمل ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، مطابق للعقل وأنه حق لا مرية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم .

ويجب أن يعلم أن النار التي في القبر والنعيم ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمها ، وإن كان الله تعالىٰ يحمي عليه التراب والحجارة التي فوقه وتحته حتىٰ يكون أعظم حرا من جمر الدنيا ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها ، بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلىٰ جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من النار وهذا في روضة من رياض الجنة لا يصل من هذا إلىٰ جاره شيء من حر ناره ولا من هذا إلىٰ جاره شيء من نعيمه ، وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما وقد أرانا الله في هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير .

الإيمان بالمعاد :

قال الطحاوي : ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب والصراط والميزان .

الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة والعقل والفطرة السليمة فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز وأقام الدليل عليه ورد علىٰ منكريه في غالب سور القرآن وذلك أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون علىٰ الإيمان بالله فإن الاقرار بالرب عام في بني آدم وهو فطري كلهم يقر بالرب إلا من عائد كفرعون بخلاف الإيمان باليوم الآخر فإن منكريه كثيرون .

والقرآن بين معاد النفس عند الموت ومعاد البدن عند القيامة الكبرىٰ في غير موضع ، وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم فقال تعالىٰ : ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأَعْرَاف : ٢٤] ، قال : ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأَعْرَاف : ٢٥] ، ولما قال إبليس اللعين : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحِجْر : ٣٦ - ٣٨] ، وقال ابراهيم عليه السلام : ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء : ٨٢] وأما موسىٰ عليه السلام فقال الله تعالىٰ لما ناجاه : ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ

نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ١٦﴾ [طه: ١٤ - ١٦].

وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين في آيات من القرآن وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾ [الأنعام: ١٣٠] وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم ﷺ من عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد والوعيد يذكر ذلك فيها في الدنيا والآخرة وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد فقال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤون بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾.

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال فتستحيل ترابا ثم ينشئها الله نشأة أخرى كما استحال في النشأة الأولى فإنه كان نطفة ثم صار علقة ثم صار مضغة ثم صار عظاما ولحما ثم

أنشــأه خلقا ســويا كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلىٰ كله إلا عجب الذنب كما ثبت في الصــحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « كل ابن آدم يبلىٰ ، إلا عجب الذنب منه خلق ابن آدم ومنه يركب »(١).

الجزاء :

والدين الجزاء يقال كما تدين تدان أي كما تجازي تجازىٰ ، وقال تعالىٰ : ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السَّــجۡدَة : ١٧] ، وقال : ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَــنَةِ فَلَهُۥ عَشۡـرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّــيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأَنۡعَام : ١٦٠] وأمثال ذلك ، وقال ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل من حديث أبي ذر الغفاري رضــي الله عنه : « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصــيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

وروىٰ البخاري رحمه الله في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « ليس أحد يحاســب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رســول الله أليس قد قال الله تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ٧ فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَــابٗا يَسِــيرٗا ٨﴾ [الانشِقَاق : ٧ - ٨] ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما ذلك العرض

(١) مسلم (٢٩٥٥) .

وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذاب »[1] ، يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكنه تعالىٰ يعفو ويصفح ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فإذا موسىٰ آخذ بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟! »[2] ، وهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء : وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ يصعق الخلائق كلهم ،فإن الصعق يوم القيامة لتجلىٰ الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء فموسىٰ عليه السلام إن كان لم يصعق معهم فيكون قد جوزي بصعقة يوم تجلىٰ ربه للجبل فجعله دكا فجعلت صعقة هذا التجلي عوضا عن صعقة الخلائق لتجلىٰ ربه يوم القيامة ، فتأمل هذا المعنىٰ العظيم ولا تهمله .

الصراط :

ونؤمن بالصراط وهو جسر علىٰ جهنم إذا انتهىٰ الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلىٰ الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ سئل : « أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض

---

(١) البخاري (١٠٣) .

(٢) البخاري (٢٤١١) .

والسماوات ؟ فقال :هم في الظلمة دون الجسر »[1] ، وفي هذا الموضع يفترق المنافقون علىٰ المؤمنين ويتخلفون عنهم ويسبقهم المؤمنون ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول اليهم وروىٰ البيهقي بسنده عن مسروق عن عبد الله قال : « يجمع الله الناس يوم القيامة إلىٰ أن قال : فيعطون نورهم علىٰ قدر أعمالهم ، وقال : فمنهم من يعطىٰ نوره مثل الجبل بين يديه ، ومنهم من يعطىٰ نوره فوق ذلك ومنهم من يعطىٰ نوره مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطىٰ دون ذلك بيمينه حتىٰ يكون آخر من يعطىٰ نوره علىٰ إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة إذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام قال فيمر ويمرون علىٰ الصراط والصراط كحد السيف دحض مزلة فيقال لهم امضوا علىٰ قدر نوركم فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ومنهم من يمر كشد الرجل يرمل رملا ، فيمرون علىٰ قدر أعمالهم حتىٰ يمر الذي نوره علىٰ إبهام قدمه تخر يد وتعلق يد وتخر رجل وتعلق رجل وتصيب جوانبه النار فيخلصون فإذا خلصوا قالوا الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد ... » .

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالىٰ : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مَرْيَم : ٧١] ما هو ..؟

---

(١) مسلم (٣١٥) .

والأظهر والأقوىٰ أنه المرور علىٰ الصراط قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّ نَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مَرْيَم : ٧٢].

الميزان :

ونؤمن بالميزان قال تعالىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبِيَاء : ٤٧] وقال تعالىٰ : ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المُؤْمِنُون : ١٠٢ - ١٠٣] .

قال القرطبي قال العلماء إذا انقضىٰ الحساب كان بعده وزن الأعمال ؛ لأن الوزن للجزاء فينبغي أن يكون بعد المحاسبة فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها قال وقوله تعالىٰ : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبِيَاء : ٤٧] ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال ويحتمل أن يكون المراد الموزونات ، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة والله أعلم .

والذي دلت عليه السنة أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان ، روىٰ الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيخلص رجلاً من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم

القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ، ثم يقول له أتنكر من هذا شيئا أظلمتنك كتبتي الحافظون قال لا يا رب فيقول ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل فيقول : لا يارب ، فيقول : بلىٰ إن لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك ، فتخرج له بطاعة فيها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، فيقول أحضروه فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟! فيقال : إنك لا تظلم قال : فتوضع السجلات في كفة ، والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء »[1] .

ويشهد له ما روىٰ البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة ، وقال اقرؤوا إن شئتم : ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾ [الكهف : ١٠٥][2] ، وروىٰ الإمام أحمد عن ابن مسعود : « أنه كان يجني سواكا من الأراك ، وكان دقيق الساقين فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله ﷺ :

(١) الترمذي (٢٦٣٩) .

(٢) البخاري (٤٧٢٩) .

مم تضحكون ؟ قالوا : يا نبي الله من دقة ساقيه ، فقال : والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد »[1].

فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال وثبت أن الميزان له كفتان والله تعالىٰ أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات .

عدالة الصحابة :

قال الطحاوي : **ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب احد منهم ولا نتبرأ من أحد منهم ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم ولا نذكرهم إلا بخير وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان .**

يشير الشيخ رحمه الله الىٰ الرد علىٰ الروافض والنواصب وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ الصحابة هو ورسوله ورضي عنهم ووعدهم الحسنىٰ كما قال تعالىٰ : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التَّوْبَة : ١٠٠] ، وقال تعالىٰ : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ

---

(١) أحمد (٣٩٩١) .

مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ [الفتح : ٢٩].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبه خالد فقال رسول الله ﷺ : لا تسبوا أحدا من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن دون البخاري[1] ، فالنبي ﷺ يقول لخالد ونحوه لا تسبوا أصحابي يعني عبد الرحمن ، وأمثاله لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا وهم أهل بيعة الرضوان فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان وهم الذين أسلموا بعد الحديبية وبعد مصالحة النبي أهل مكة ، ومنهم خالد بن الوليد وهؤلاء اسبق ممن تأخر إسلامهم إلىٰ فتح مكة وسموا الطلقاء منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية والمقصود أنه نهىٰ من له صحبة آخرا أن يسب من له صحبة أولا لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه حتىٰ لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه ، فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد

---

(١) مسلم (٢٥٤١) .

الحديبية وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصــحابة بحال مع الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

والســابقون الأولون من المهاجرين والأنصــار : هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة ، وقيل إن السابقين الاولين من صلىٰ الىٰ القبلتين ، وهذا ضعيف فإن الصلاة إلىٰ القبلة المنســوخة ليس بمجرده فضــيلة ؛ لأن النســخ ليس من فعلهم ولم يدل علىٰ التفضيل به دليل شرعي ، كما دل علىٰ التفضيل بالسبق إلىٰ الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة .

وفي صــحيح مســلم عن جابر قال قيل لعائشــة رضــي الله عنها إن ناســا يتناولون أصــحاب رســول الله ﷺ حتىٰ أبا بكر وعمر فقالت : وما تعجبون من هذا انقطع عنهم العمل ، فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر .

قوله : **ولا نفرط في حب أحد منهم** : أي لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم كما تفعل الشــيعة ، وقوله ولا نتبرأ من أحد منهم كما فعلت الرافضــة فعندهم لا ولاء إلا ببراء أي لا يتولىٰ أهل البيت حتىٰ يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأهل السنة يوالونهم كلهم وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها بالعدل والإنصاف لا بالهوىٰ والتعصب .

الفهرست